



مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة عالميا تصدر دوريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon - Tripoli /Abou Samra Branche P.O.BOX - www.jilrc.com - literary@journals.jilrc.com



ISSN 2311-519X - DOI Prefix: 10.33685/1317 العام الثالث عشر - العدد 106 - فبراير 2026

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

ISSN 2311-519X

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا



Lebanon - Tripoli /Abou Samra Branche P.O.BOX - www.jilrc.com - literary@journals.jilrc.com

المشرفة العامة: أ.د. سرور طالبی

مدير التحرير: د. جمال بلبکای

هيئة التحرير:

أ.د. أحمد رشاش (جامعة طرابلس، ليبيا)

أ.د. أمين مصري (المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر)

أ.د. دين العربي (جامعة الدكتور مولاي الطاهر، الجزائر)

أ.د. عبد الرحمن الأغبري (جامعة أديامان، تركيا)

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)

التعريف:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة عالميا تصدر دوريا عن مركز جيل البحث العلمي وتعني بالدراسات الأدبية والفكرية بإشراف هيئة تحرير ولجنة علمية ثابتة مشكلة من أساتذة وباحثين من عدة دول وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

DOI Prefix: 10.33685/1317

اللجنة العلمية:

أ.د. عبد الوهاب شعلان (جامعة محمد الشريف مساعدي، الجزائر)

أ.د. ضياء غني لفته العبودي (جامعة ذي قار، العراق)

أ.د. محمد جواد حبيب البدراني (جامعة البصرة، العراق)

أ.د. مداني زيقم (جامعة سوق أهراس، الجزائر)

أ.د. منتصر الغضنفری (جامعة الموصل، العراق)

د. الحسين محمد ال مهديه (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية)

د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون)

د. ظلال سعده (جامعة أنقرة للعلوم الاجتماعية، تركيا)

د. كريم المسعودي (جامعة القادسية، العراق)

د. مأمون التجاني حسن الدالي (جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية)

م.د. نزار راهي خصاف (المديرية العامة لتربية محافظة واسط، العراق)

اهتمامات المجلة وأبعادها:

ينفتح الخطاب الفكري والأدبي على عدة اعتبارات، ويتموضع ضمن سياق سوسيو ثقافي وسياسي، يجعل من تمثلاته تأخذ موضوعيات متباينة، فبين الجمالي والفكري مسافة تماس وبين الواقعي والجمالي نقاط التقاء تكشفها المواقف. وإيمانا منا بأن الحرف التزام ومسؤولية، وبأن الكلمة وعي وارتقاء، فإن مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية المجلة الأكاديمية الدولية المحكمة والتي تختص بنشر البحوث الأدبية والمقاربات النقدية والفكرية تسعى لأن تقدم جديدا إلى الساحة الفكرية العربية.

الأهداف:

- نشر المعرفة الأصيلة، وتعزيز الحوار العلمي العقلاني من خلال نشر الرأي والرأي المخالف.
- تلبية حاجات الباحثين وطلبة العلم سواء من ناحية الاكتفاء المعرفي في مواضيع محددة تتماشى وهدف المجلة أم من ناحية النشر وتشجيع البحوث الرصينة والمبتكرة.
- خلق وعي قرآني حدوده التمييز بين الكلمة الأصيلة والكلمة المبتذلة التي لا تقدم جديدا في ظل استسهال النشر مع المتاحات الالكترونية.

أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

د. إدريس بن خويا (جامعة أدرار، الجزائر)

د. هاني إسماعيل رمضان (كلية الإلهيات، جامعة جيسون، تركيا)

د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون)

د. وداد عوض الكريم محمد سعيد القرشي (جامعة الجزيرة، السودان)



مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

شروط النشر



مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية مجلة علمية دولية محكمة تختص بنشر البحوث الأدبية والمقاربات النقدية والفكرية، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد. تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية:

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.

• أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:

- عنوان البحث باللغة العربية والانجليزية.
- اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها باللغة العربية والانجليزية.
- البريد الإلكتروني للباحث.
- ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12 باللغة العربية والانجليزية.
- الكلمات المفتاحية بعد الملخص باللغة العربية والانجليزية.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
- اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
- اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
- تكتب العناوين الرئيسية والفرعية بحجم 18 نقطة مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك.
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها وهي غير ملزمة بتقديم مبررات.

• ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة: literary@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

- 07 • الافتتاحية
- 09 • البناء الأسلوبي في شعر الهايكو عند الأديب كريم فارس؛ مصعب مكي زبيبة (كلية الآداب، جامعة الكوفة، العراق)
- 25 • علماء النحو في الهند: شهاب الدين الدولت آبادي أنموذجاً؛ رمضان علي - محمد جواد أركين (جامعة دجلة، تركيا)
- 51 • مفهوم الجيل في دراسات الهجرة: مراجعة نقدية؛ يوسف حاسين (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب)
- 73 • البلاغة والبيداغوجيا عند محمد عابد الجابري؛ منير بورد (البعثة الفرنسية بالرباط، المغرب)
- 93 • سمات وخصائص اللغة المتخصصة؛ أنس ملموس (جامعة شعيب الدكالي، المغرب)

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

يأتي العدد السادس بعد المائة من مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية ليؤكد من جديد رسالته العلمية في وصل الضفاف المعرفية، يفتتح العدد بدراسة تتناول البناء الأسلوبي في شعر الهايكو عند الأديب كريم فارس، حيث ينكشف النص الشعري بوصفه مساحةً للتكثيف الدلالي، واقتصاد العبارة، وتوتر الصورة .

وفي محور آخر، يتجه العدد إلى فضاء قلماً أضيء بما يكفي في الدراسات العربية، وهو حضور علماء النحو في الهند، من خلال نموذج علمي بارز أسهم في ترسيخ الدرس النحوي والبلاغي في بيئة ثقافية متعددة المشارب. ويخصص العدد دراسة وافية لمفهوم الجليل في دراسات الهجرة: مراجعة نقدية، حيث يُفكك المفهوم في سياقاته السوسولوجية والثقافية، ويُعاد النظر في توظيفاته النظرية والمنهجية .

كما يحتفي العدد بقراءة في البلاغة والبيداغوجيا عند محمد عابد الجابري، مستحضراً مشروعاً الفكري الذي سعى إلى إعادة بناء العقل العربي على أسس نقدية .

ويختتم العدد بمحور لغوي يتناول سمات وخصائص اللغة المتخصصة، حيث تُدرس اللغة في تجلياتها المهنية والعلمية، بما هي نظام دلالي يشتغل داخل سياقات محددة، ويخضع لاقتصاد مفاهيمي دقيق. إن اللغة المتخصصة ليست انقطاعاً عن اللغة العامة، بل هي امتداد وظيفي لها، يفرضه التطور المعرفي وتعدد الحقول. ومن هنا تأتي أهمية رصد خصائصها الأسلوبية والمعجمية والتداولية، لفهم آليات إنتاج المعرفة وتداولها.

إن هذا العدد، بتنوع موضوعاته وتكامل محاوره، يعكس إيمان المجلة بأن الأدب والفكر واللغة حقول متداخلة، لا يمكن عزل أحدها عن الآخر دون الإخلال بوحدة الرؤية. فالنص الأدبي ينهل من البلاغة، والبلاغة تتجدد في حضن التربية، واللغة تتشعب بتشعب المعارف، والمفاهيم تتبدل بتبدل السياقات.

وإذ نقدّم هذا العدد لقراءنا الكرام، نسأل الله أن يجعل فيه نفعاً، وأن يكون إضافة تثري الفكر وتعني الذائقة وتضيء دروب البحث والاكتشاف.

مدير التحرير: د. جمال بلبكي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

البناء الأسلوبي في شعر الهايكو عند الأديب كريم فارس

Stylistic construction in haiku poetry by writer Karim Faris

أ.د. مصعب مكي زبيبة/كلية الآداب، جامعة الكوفة، العراق

Prof. Dr. Musaab Makki Zabiba University of Kufa, Iraq

مستخلص:

لم يلقِ الهايكو الاهتمام والعناية المطلوبة لدى الأدب العربي؛ بسبب البنية الثقافية لدى الفرد العربي؛ المولع بشغفه بالإطناب والإسهاب، والتفصيل والشرح، بخلاف متطلّبات الهايكو الفنيّة المعتمدة على الإيجاز والاقتضاب والتكثيف والاختصار، ولكننا لا نعدم جذور أوليّة في الأدب العربي، تمتد وتتشارك مع شعر الهايكو، من أدب فكاهاة، وحكم موجزة، وومضة شعرية تعتمد على بيت مفرد، أو شطر مكثّف العبارة، والتقاط اللحظات العابرة في الحياة، فهناك من اكتفى ببيت واحد مختزلاً تجربة كاملة. وقد حاول الشاعر كريم فارس أن يعطي فكرة مختصرة بكلمات معدودة في المقطع الأخير من المقطوعة الشعرية، هي بمثابة حل لغز القصيدة، أو بمثابة العنوان المضمّر، ونجد المشهديّة الدراميّة، والتصعيد السينمائي، والانتقالات السريعة حاضرة في أجواء قصائد الشاعر، بجمل قصيرة ولاسيما الاسمية منها، يعرض لأفكاره، فضلا عن الأساليب البلاغيّة التي تؤكّد المعنى الذي يرومه، ويظهر التوتر ونقل الأحاسيس رؤاه وتأملاته وإضماراته.

الكلمات المفتاحية: البناء الأسلوبي، الهايكو، كريم فارس.

Abstract:

Haiku has never truly found the care or attention it deserves in Arabic literature, for the Arab spirit is steeped in a culture that delights in expansion and elaboration, in detail and explanation standing in contrast to haiku's essence of brevity, restraint, and distilled expression. Yet the seeds are not absent: in Arabic heritage we find glimpses that resonate with haiku the flashes of wit, the sharp wisdom of proverbs, the single verse that holds within it a whole experience, or the fleeting moment caught in a concentrated line.

Keywords: Stylistic construction – haiku - Karim Faris.

تمهيد:

لا يتخلف شعر الهايكو على بقية النصوص الشعرية، بلغة المجاز والاستعارة والأعبيها، والتباس المعنى، والانزياحات في التراكيب اللغوية، واستعمال المفردات الزئبقية⁽¹⁾، ولكته لم يحظ بما يستحقه من قراءة وفهم واستيعاب، ربما بسبب الوعي العربي الذي يفضّل الإطناب، والشرح والتفصيل؛ لأنه يضعنا أمام صمت أكثر من الكلام، إنه يجمع نرجسيتنا، وشعورنا بأن نجلس على الأرض للإصغاء والتعلم من شعيرة العالم المختلف؛ ولهذا لم يدخل العرب نوادي الهايكو، أو يتفاعلوا معهم، قراءةً وفهماً ونقداً وكتابةً⁽²⁾، ولكن السؤال هل كان للعرب نمط من الشعر يشبه التركيب الأدائي للهايكو؟

وهل كان لديهم الإيجاز الذي يحمله في مواطن التأمل والحكمة والتبصر والتفكير والمعرفة الفاحصة، ولعلّ الجواب عن هذا التساؤل نحيله إلى شاعر عربي كبير هو ذو الرمة (177هـ/735م)، فقد كان شاعر هايكو، قبل ماتسو باشو (1694م) بألف عام؟

وقد بلغ عمقاً كبيراً بإدراكه للكون، وكشفاً هائلاً لعلائق الكائنات، سابقاً بانفراده لأوانه بمراحل، بشاعرية قلّ نظيرها؛ ولهذا لم يكن المتلقي يومذاك قادراً على امتصاصها، أو استيعاب تجربتها الكونية والروحية، فالمحطات التأملية التي يستعين بها شعر الهايكو متوافرة عنده، والقدرة على سبر أغوار التكوينات المجهرية للحظات العابرة متمكّن من تصييدها والعناية بأحداثها وإثباتها⁽³⁾، فهو حين شبه الفلاة بسما زرقاء، والبحر بصحراء، والنجوم بظباء، والظباء بأصداف، والبعر بتوت وعنب، وشعلة النار بعيني ديك، وعين الناقة بأوقية نقد، وزيت، وحرف ميم، كان شاعر هايكو بامتياز⁽⁴⁾.

نعم كان العرب سبقين بهذا المضمار؛ فشعر الومضة، أو الشعر الوجيز كان يختصر تجربة طويلة من الحكمة والتأمل بيت واحد، أو مشهد مفرد، وخير مثال على ذلك شعر أبي العتاهية (211هـ/826م) من حكمة وتبصر مختصر بيت واحد، أو مقطوعة واحدة. والحكمة من ومضات الحلاج (309هـ/922م)، ومحيي الدين بن عربي (638هـ/1240م)، بما كانا يصوّرانه من تجربة بلغة مكثفة ساحرة. والأمثال العربية هي الأخرى تتآخى مع شعر

(1) إيسا-كوباياشي: 21 .

(2) العبد الله، حيدر بن جواد: 11.

(3) العبد الله، حيدر بن جواد: 9-10.

(4) العبد الله، حيدر بن جواد: 9.

الهايكو بقصر عباراتها، وتكثيفها وحكمتها والتقاطها لمشاهد الحياة المتفرقة، وإيحاءاتها وشعبيتها، هذا الإرث الطويل الغني يجعلنا نستطيع القول إن العرب سابقين بمراحل لليابانيين بما اختصوا به من هايكو، ولكن يبقى الهايكو علامة فارقة للشعب الياباني، يقول محمد عزيمة: بكلمة هايكو نتذكر اليابان، وليس من المستبعد أن تحلّ بدلاً من لفظة اليابان نفسها، فروح الهايكو العبثية المضحكة، العدمية الزائلة، السريعة، المسلية العاشقة تعانق روح اليابان بشعبه وبلاده⁽¹⁾.

وبعد ذلك كله؛ علينا أن نعدّ هايكو عربي يكون امتداداً للأصالة الشعرية العربية، لا أن تكون بديلاً عنه، حتى لا نجد أنفسنا غرباء عن اللحظة الراهنة، وغير منسلخين عن الهوية الأصيلة، وغير متطابقين مع الآخر، أي بمعنى تبيئة الهايكو عربياً، باستيعاب الهايكو الياباني في ثقافته المتجدّرة، واستئناف كتابته بأبعاد عربية عريقة خالصة⁽²⁾. وللهايكو مزايا وخصائص نحاول استعراضها سريعاً⁽³⁾:

الخصيصة الأولى: قصيدة الهايكو تنطلق من التقليد الشعري السائد (الرينغا)، الموظف للحكمة والمأثور والمثل، وكثيراً ما يشتغل على الواقعية التي تسود الحياة، ولا يستند إلى الغموض والتجريد، فالحظة الزمانية والمكانية محدّدة بشدّة، والتعبير على الحياة الزائلة بسرعة ذبول الورد، والغصن الرطيب، والفراشة، والعطر، ومن السهولة الوصول إلى مدلولاتها ورمزيتها، ولكن على الرغم من هذه السهولة ثمة فلسفة جمالية عميقة، تبرز على السطح.

الخصيصة الثانية: الإيجاز والاختصار وعدم الإطناب، فقصيدة الهايكو تنجز عادة بعدد محدّد من الأسطر الشعرية.

الخصيصة الثالثة: الارتكاز على الجمل الاسمية، فلا نجد الاستناد على الجمل الفعلية إلا نادراً، والاعتماد على الجمل الناقصة، مواكبة لما في الحياة من نقص، وخفاء، فالحياة قليلاً ما تبوح بأسرارها.

الخصيصة الرابعة: الاتكاء على تسخير الحواس، والابتعاد عن الاستدعاءات العقلية، فحواس الشمّ، واللمس، والبصر، والذوق، والسمع، حاضرة في قصيدة الهايكو بقوة وموظّفة بإحكام.

(1) محمد عزيمة، وكوتا كاريا: 12.

(2) حيدر العبد الله: 21.

(3) يوتسويا، ريو: 8-9.

الخصيصة الخامسة: الاعتماد على الحالات الهزلية والفكاهية، والقصد منها التخفيف من وطأة الحياة وصرامتها، فتوظيف السخرية ونشر الابتسامة من أجل تحويل جدية الحياة إلى مواقف مضحكة تريح الأعصاب، وتخفف التوتر، وتهديء النفوس.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على شعر الهايكو بما يحمل من مرجعية ومزايا، سيتم الوقوف على بعض نماذج الهايكو الشعرية للشاعر كريم فارس، وهو أديب عراقي اختصّ بشعر الهايكو⁽¹⁾.

العنوان: ما لم تر:

ما لم تر هو عنوان والعنوان عتبة مهمة لمنجز أي أديب؛ فعلى الأديب البحث في عنوان يلائم ما يحتويه الكتاب من مواضيع ونصوص، كذلك البحث عن لوحة تتلاءم مع العنوان؛ توضع على غلاف الكتاب من الخارج، إذ نلاحظ أن اللوحة احتوت على صورة لرقصة الدراويش وتفصيل أخرى، مما يظهر أجواء من الصفاء والتأملية الفلسفية، ويوحى أيضا بالتجرد والبحث الدائب عن الحقيقة، بما عرف عن الدراويش من زهد بالحياة وترف الدنيا، والسعي الدائم وراء المعرفة والروحانيات، وهي عتبة لجذب انتباه المتلقي بما تحمل من طباع تراثي خصب، ولقد تم اختيار العنوان (ما لم تر) بمعنى أن الشاعر يرى ويتفاعل مع أشياء ما لم يراه الآخرون، ويتأثر بجمال الطبيعة من زهور وأشجار وأنهار وجبال وأهوار وغيرها من أمور الحياة الأخرى أكثر من الآخرين؛ لذلك تم اختيار هذا العنوان.

القصيدة الأولى: وطن جريح

كأسٌ بيدٍ سكيرٍ/ يكادُ أن ينكسرُ/ العراق.

شراعٌ ممزقٌ/ ومركبٌ مثقوبٌ/ وطني.

كما كبير السن/ يتعثرُ بوضوحِ النهارِ/ وطني.

(1) هو: عبد الكريم فارس مهلهل منصور الخزاعي، تخرّج في معهد الإدارة/الناصرية، عمل في وزارة الصحة، عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، وعضو اتحاد الصحفيين العراقيين، وعضو هيئة الأنساب في النجف الأشرف، وعضو هيئة حكام أسود الرافدين، وعضو المنظمات المدنية للمطبوعات والمشاركات، وعضو مؤسس في نبض الهايكو، وعضو نادي هايكو المجاز والتأويل في سوريا، وعضو نادي النص القصيرة في سوريا، وعضو نادي هايكو الطبيعة الأردني، وعضو نادي مختبر الهايكو، وعضو نادي هايكو مصر، وغيرها من نوادي الهايكو كثير، صدر له عدد من المؤلفات منها: 1- ديوان بانيقيا وهمسات الشوق، عام ٢٠١٩، 2- ديوان هايكو الدهشة، نصوص هايكو، دار السكرية في مصر للطبع والنشر، 2020م - ديوان هايكو ما لم تر، - كتاب هايجن الرافدين يتضمن أغلب كتّاب الهايكو العراقي 2022م.

أشدُّ من الحزن حزناً/كثرة الغبراء/ في وطني⁽¹⁾

استدعى الشاعر كريم فارس في مقاطعه الباكية عن وطن تناهبه الفاسدون التراكيب والصياغات القصيرة التي تبعث رسائل مستعجلة وسريعة؛ لأن حال البلد لا ينتظر التأخير أو التأجيل، وقد وصل إلى حال لا يُطاق، فكان اعتماد المقاطع على المشهديات السينمائية التي تنتقل من لقطة إلى أخرى، ومن زاوية إلى أخرى، وهي تعرض إلى تفصيل واحد، هو ضياع الوطن، ولكن الأديب كريم فارس عرض له من زوايا متعدّدة، زاوية أن وطنه كأنه كأس بيد سكير يكاد يتهشم، وزاوية أخرى، أنه كالشرع الممزق في موكب مثقوب، وزاوية أخرى أنه كالشيخ كبير السن الذي يعثر حتى في النهار؛ لتخرج النتيجة النهائية من كل هذه الانكسارات والتشظّيات بأنه أكثر من الحزن حزناً؛ معللاً ذلك بكثرة الغبراء؛ لأنّ الفساد لا يصدر إلا من الغريب، وإن ولد في ربوع الوطن؛ فهو غريب عن القيم الوطنية الأصيلة التي تحتّم عليه الشرف والنزاهة والولاء المطلق.

هذه الانتقالات الشعرية، أو المشاهد السريعة أنتجت بوساطة الجمل الاسميّة التي تدلّ على الثبات والجمود في حال الوطن، وانقطاع الأمل بالانفراج السريع، أو تغير الحال إلى حال أفضل، والشاعر يرى وطنه من سيء إلى أسوأ، ولهذا نلاحظ الجمل الاسميّة على سبيل المثال: (كأسٌ بيد سكيرٍ. صراعٌ ممزقٌ. وموكبٌ مثقوبٌ...)، وقد مهّدت التشبيهات توصيف الحال، كما في قوله: (كما كبير السن)، أو الاستعارات كما في: (صراعٌ ممزقٌ) عن طريق الاستعارة التصريحية؛ إذ شبّه الصراع كأنه ثوب، ثم حذف الثوب، وجاء بلازم من لوازمه، وهو التمزيق. ولعلّ هذا التكتيف في الأدوات البلاغية، والمقاطع التصويرية مرده إلى أنّ النصّ الشعريّ يحمل في طبيّته صفة اللاهائية، فهو يخترن في أعضائه الداخلية طاقات فنيّة كامنة في أصلابه، مند بداياته الجنيّة الأولى، وحتى مواصلته مع المتلقّي، ويقدم النصّ الشعريّ صياغته التعبيرية من خلال نظامه اللغويّ المستقلّ بذاته، ووجوده الدائم يستمدّ قوّته من تواصله الديناميكي الفعّال⁽²⁾؛ وعلى الرغم من أن بعض النعوت التي تصاغ بها العبارات جاهزة عرفيّة تقليدية تموت فيها الجماليات التي تخلفها، إلا أنّها تبقى تتسم بالحياة والحيوية، لتبقى فعالة؛ بسبب أنّ القارئ يكون مجبراً على إدراكها وفهمها، واستلال قوّتها الشعرية؛ فكلمة كانت واضحة، أصبحت أكثر ابتعاداً، بمرور الزمان مفارقة اللغة اليومية السطحية⁽³⁾.

(1) كريم فارس: 17-18.

(2) ظ: طابعي، أحمد: 50.

(3) ظ: ريفاتير، مايكل: 44.

لقد مثلت العمود الفقري للقصيد لفضة (الوطن) الحاضرة في وجدان الشاعر، وكأنه يصبر على استدعائها وتماهمها، والارتواء منها، بإحاحها الوجداني، وتعالقها النفسي، الذي يحاول الشاعر توثيقه في المعادلة الشعرية، بعدما كان حاضراً في وعيه وضميره، وهي نتيجة طبيعية لما يتلقاه المواطن البسيط من خذلان وتوتر، وهو يرى صور الخراب والفساد منتشرة في ربوع الوطن، ففي هذه المقطوعات الشعرية يحاول أن يُسمع صرخته واحتجاجه وثورته، بل البحث على الهوية الضائعة وقد تناهسته الغرباء، فالنداء المتكرر في كلمة (الوطن) استعادة خلافة للذات والضمير، فالتكرار ليس مجرد حنين فارغ لا روح ولا دماء فيه، بل قلق مدمى مستحضر بدرامية مشهدية عالية التأثير، ظهر واضحاً جلياً من خلال الجمل القصيرة والسريعة، وهي تصوّر التوتر والحساسية المفرطة، والألم المزمن، كل هذه المشاعر والأحاسيس حاول الأديب كريم فارس إخفاءها وإضمارها؛ لأنّ تقاليد الشعر الهايكوي تفرض على مرتادها إخفاء المشاعر وإضمار الظهور بعناية في النصّ، وقمع الذاتية المباشرة، واستكناها بما روائية السطور والكلمات؛ ولهذا تحتاج إلى التأمل الطويل؛ لكي نحصل على الفهم الحقيقي، فالقراءة السريعة لا توصل القارئ إلا إلى صورة باهتة لا حياة أو حيوية فيها⁽¹⁾.

القصيد الثانية: (ما أعظم الشعور بالأمان)

تلتقطُ الأعواد/ عشها في حديقة المنزل/ تلك اليمامة

أصواتٌ جائعةٌ من أصابع المارة تلتهم الفتات/ نوارسُ الجسر⁽²⁾

التقاط الأشياء العابرة البسيطة، والنظر إلى المخفي، أو ما لا يراه الناس، ولكن المقطع على بساطته وتلقائيته مليء بالتناقضات الثنائية الضدية المتخالفة، التي تعري الواقع وتكشفه، ويشهد على زيفه. من هذه الثنائيات الضدية: ثنائية الضعف والقوة، بناء الأعشاش، (قوة)، الأصوات الجائعة-التهام الفتات، ضعف، وهدم، بناء الأعشاش في الحديقة قوة، النوارس الباحثة عن الطعام من أيدي المارة ضعف، ولكن ثمة تعرية للواقع يفضحه النصّ، في الحياة غير الآمنة، والجسر في كنيته على العبور السريع، والحديقة المكشوفة وعدم وجود سقف لها، وعدم الأمان فيها، مهاجمة الأعداء. والنصّ يحمل في طياته رسائل متوارية منها: اليمامة التي ترمز إلى رسالة السلام، وأصوات الجوع، التي تدلّ على هشاشة هذا السلام، وربّما زيفه، وازدواجيته، مثلما نشاهد على سبيل المثال في غزة، تقتل النساء، ويُذبح الأطفال، في حين نشاهد على شاشة الفضائيات إنقاذ كلب عالق أو قطعة من سطح،

(1) إيسا-كوباياشي: 15.

(2) كريم فارس: 22.

وغير تلك من الأمور الإعلامية الزائفة. والنوارس رمز الحرية والتحليق الحرّ، ولكنها أيضا حرّية مشوبة بالتقييد والاضطهاد، الذي يرمز له التهام الفتات، وكأنّ الإنسان لا يحصل من تلك الحرّية إلا الفتات منها، ولا يحصل على حرّيته الكاملة في التعبير عن الرأي. وهذه التوريات التي جاءت في القصيدة إنّما من شروطها أن تكون قائمة على تفاعل بين سياق مقامي، وسياق إحالي مرجعي، ومن خصائصها اختلاف القراءات وتعدّدها وكثرة تأويلاتها بحسب القارئ وموجهاته السياقية، وهذا يعني أن المعنى المعجمي يخالف المعنى السياقي للنص⁽¹⁾، فهي حركة عكسيّة إرداديّة لا تسلّم بالحقائق، ولا تسيطر عليها البديهيّات.

والنصّ لم يخلُ من الوقفات البلاغيّة من قبيل: (أصوات جائعة) في تقنية تراسل الحواس، إذ تخترق الظواهر الطبيعيّة، فالأصوات تلتقط من حاسة السمع، في حين الجوع يلتقط من حواس داخلية في الجسد، وسدّ نقص الجوع يتربط بحواس التذوّق واللمس والنظر، وهذا الاختراق تجسّده الصورة الفنيّة التي تبرز اهتزاز المشاعر في الحاجة الماسّة إلى الطعام، وكأنّ الأذن تسهم في التقاط فتات الطعام؛ ممّا يضاعف من توتّر الصورة، وجعلها كأنّها محسوسة عند المتلقّي.

القصيدة الثالثة: أقوال الجدة

جدّتي تُتمتم/ نذير شؤم مساءً/ نعيقُ الغراب

غرفة الجدّة/ تُتمّم عُشّها كلّ عام/ سنونو مهاجرة

نقشُ الحنّاء/ على كفّ الصبّية/ يروق لجدّتي

للجدّة وشمّ أخضر/ بذقنها باتجاه رقبتهما/ كما قلادة سومريّة⁽²⁾

يستحضر الشاعر هنا الموروث الشعبي، أو البعد الثقافيّ، الذي يرى من الغراب في المخيال الشعبي أنّه رمز للتشاؤم والنحس، وصوته في المساء، يستحضر الفقدان والموت، ولكن سرعان ما يقابل ذلك بثنائيّة مقابلة ضديّة، وهي السنونو رمز التفاؤل والهجرة والحركة المستمرة الدائبة والخصب والاطمئنان.

التبشير في القصيدة نجده في غرفة الجدّة، وهذا ما يطرحه العنوان بوصفه استدلالاً أولياً للقارئ، غرفة الجدّة تتحوّل إلى رمز إلى الهيمنة الجمعيّة، والمركزيّة في القرار، أفراخ السنونو تخرج من الغرفة، فهي فضاء رحب للولادة،

(1) طابعي، أحمد: 67.

(2) كريم فارس: 23-24.

وهي بؤرة القرار، التي ترمز إلى التسلط، والتحكّم بحسب الثقافة التقليديّة. والبنية الأبويّة في تسلطها، فالصوت النسائي في القصيدة بارز، بما يحمل من خبرة في الحياة واكتساب للتجارب، والولادة وبناء البيت والاستقرار، كلّها أمور تعلي من هيمنة الصوت الأنثوي البارز في القصيدة. وعليه يمكن تحقيق إدراكنا فيما هو مستقرّ في العقول، وبما هو مشترك بين الناس في معارفهم، وعاداتهم وسلوكياتهم الاجتماعيّة المختلفة، التي تتناقلها النصوص الشعريّة وتنتقمها بحياديّة؛ لتشكيل مرجعية ثقافية فنية، فالشعر يحتال من أجل تحريك النفس بما يتطلّب مقتضى الكلام؛ ليقع ضمن إطار القبول⁽¹⁾.

في المقطعين الثالث والرابع تبرز أيضا قيم متناقضة بين ما هو ظاهر ومخفي في النصّ الجمالي، الظاهر الجمال الطبيعي والبساطة في التعامل، وتصارع الأجيال فيما بينها، الوشم والحناء والبساطة مع قيم الجمال الأنثوي، المتصارع بما هو مخفي في متن القصيدة القيم المبالغ بها من إبراز الجمالي الأنثوي في الوقت الحاضر، ففي القصيدة إدانة مبطنة للتهريج والاستعراض الأنثوي الصارخ من قيم الحضاريّة المشوّهة. فيحمل النصّ دعوة إلى الترميم، وقصائد الهايكو لا تقترح الفلسفة، ولا تبطن الأيدلوجيا، بل هي إيماءات بسيطة بتعدد عمد عن التعبيرات التفخيمية، والإشارات الجافّة، التي لا حياة بها، واللجوء نحو العبارات الصافية النقية، وهذا ما يتطلّب عبقرية وعمق، التصريح كلّما كان أكثر بساطة تطلّب جهداً وثقافة واعتناء أكثر؛ لوصف جوهر الأشياء لا مظهرها الخارجي والقشور الظاهريّة⁽²⁾، بمعنى تدمير النظام القائم، ونفي مرجعيّته التي يستند عليها، بهدف الإصلاح، الترميم الذي يقوم على الثورة والهجوم، وهدم النظام القائم على الانحطاط والتخلّف، واستهجان الماضي الجامد بعملية انفصال حاسم وانتقاد حادّ على حيثيات النظام المرجعيّ القابع، واستبداله بمغاير في الطبيعة والبنية والمكوّنات⁽³⁾.

نقش الحنّاء على كفّ الصبية، في الموروث الشعبي يثبت أجواء احتفاليّة، والوشم على ذقن المرأة يرسل أجواء الرسوخ والثبات، وهنا تبرز أيضا الثنائيّة الضديّة التي كثيراً ما يعتمل عليها الشاعر، النقش بالحنّاء مؤقّت زائل، والوشم على ذقن الجدة دائم باق، واستحضار الصبية والجدة يُرجعنا إلى مسألة صراع الأجيال، الجدة تريد أن تبقى هي المسيطرة على مجتمعتها الصغير، والأجيال الجديدة تريد التحرّر من هذه الهيمنة والتحكّم، والفنّ والأدب

(1) طابعي، أحمد: 68.

(2) يوتسويا، ريو: 23.

(3) ظ: بلقزيز، عبد الإله: 17.

في إطاره العام الشمولي يدعو إلى التحرر والاستقلال، يؤيد ذلك مبدئه الشكلي، المتمثل بالتعبير الحر، المضاد للعقل النفعي، فهو ممارسة جمالية تحررية، تزداد قوة من الواقع، ولاسيما في الأعمال الفنية الحدائوية، فالأدب والفن يحققان الخلاص من العناصر المادية، وكدح الحياة اليومية النمطية باستيعابها داخل شرنقة الخطوط الحرة للإشعاع الجمالي⁽¹⁾.

الثنائية تعود بقوة بين الفعل وردة الفعل، بين الثبات والزائل، بين الأصالة والطارئ، بين الانتماء وعدم الانتماء، بين التمسك بالموروث ومغادرته حيث العلم والتطور، بين الماضي والحاضر، بين الجذور الثابتة التي ترمز لها (قلادة سومرية)، والطارئ النقش بالحناء، وشعر الهايكو معني بنقل المشهد الحياتي بصورته الطبيعية غير المصطنعة، مادته الخام من عناصر الطبيعة والحياة، وقليلاً ما يضيفي شاعر الهايكو مشاعره على مفردات القصيدة، نعم يؤنسن ويكتف، ولكن تبقى اليد الطولى إلى الحياة بجميع مفرداتها المتناقضة والمتوترة والمتصادمة. وهذا ما يتطلب مزيداً من لحظات التأمل والتفكير والوقوف الطويل أمام مشاهد الحياة الحرجة، والحساسية أمام ما يجري فيها، فلهذا أرى أنّ شاعر الهايكو هو الذي يرى ما لا يراه الآخرون في لحظات الحياة المختلفة؛ لما يمتلكه من حساسية ومشاعر تعتمد على التساؤل المستمر الدائم.

القصيدة الرابعة: الفراشات

زهوُزْبْرِيَّةٌ/ تعزف بصمت لحن الربيع/ أجنحةُ الفراشات

الفراشاتُ/ تلوذ بالجدار/ قيظ عراقي

رذاذُ المطر/ على أجنحةِ الفراشات/ هروب

حباتُ كرز/ لونها يغري الناظر/ الفراشاتُ تحوم⁽²⁾

من خلال القصيدة نقف أمام مشاعر باطنية لا واعية تنم عن دوافع ورغبات ومخاوف تكشفها الألفاظ، تعلن عنها العبارات، وتُعنى بها الحالات العميقة للشعور، وهذه الرغبات هي التوق للحرية، والحاجة الفكرية الكامنة في دواخل الإنسان اللاشعورية والانعقاد من القيود من جميع روافدها الاجتماعية والسياسية والنفسية، ففي عبارة (تعزف بصمت لحن الربيع) كأنّ الشاعر لديه مخاوف حقيقية في الانطلاق في البوح والتعبير، إنّها مخاوف ومعاناة

(1) أوستين، ستيفاني: 114.

(2) كريم فارس: 25-26.

جماعية، فال (نحن) يتحوّل إلى ال (أنا) في تصدّع ينجم فيه خلاف عميق بينه وبين أفراد الجماعة التي تتكامل معها مواقف ال (أنا)، المكمل لموقف ال (نحن)، في توازن ديناميكي يكشفه السلوك الشخصي المنضم إلى الجماعة؛ لأنّ الفرد عضو فيها ومندمج بحيثياتها وتشعباتها، فالقلق وعدم الاستقرار، ومحاولة اللاشعور تزداد في اندماجها في الجماعة، وتقترب من ال (نحن)، وتظهر صحّة هذه النسبة في ترجمة الأفعال الشخصية إلى أفعال جماعية⁽¹⁾. وهناك رغبة ملحة للانفكاك من هذه المقيدات والمصدّات في هذه الرغبة التي ترمز لها (الفراشات) في إشارة إلى الحرية المطلقة في الأجواء، والنقاء، والتجدّد المستمر، والموت والولادة المتكرّرة.

وأظهرت المفارقة الأسلوبية الصراع اللاواعي المعتصر في النفس؛ فالربيع قيظ، والقيظ العراقي يضفي على المشهد النفسي دلالة على التوتر السياسي والاجتماعي والنفسي، الذي ينسرب في كوامن النفس، وربّما يلوح الانفراج والأمل في عبارة: (رذاذ المطر) الذي يبّلل أجنحة الفراشة، ولكن هذه البارقة للأمل تتلاشى سريعاً وتنكمش في لفظة: (هروب)، فكّلما حضر الأمل ثمة انهزام داخلي مردّه اللوذ في الجدار، والقيظ، والصمت.

وفي المقطع الأخير ثمة ركون أخير إلى اللذة أو البوح بالأسرار، أو الحضور النفسي الإيجابي في ضبابية الرؤية وانقطاع الأمل، وتوالي الخيبات ثمة حبات كرز، وثمة لون أحمر لفرشات تحوم لتحوّل الغريزة بالبقاء والحياة والحلم إلى واقع معيش ملموس؛ فالسعادة والتفاؤل حاضرة في الإنسان القوي، مهما اشتدت الآلام والمصائب والمحن، والإنسان العراقي مثل طائر الفينيق من تحت الرماد ينهض ليستعد عافيته وقوّته ووجدانه الغائب. لقد استطاعت القصيدة أن تؤدّي هذه المتطلّبات النفسية واللاشعورية في شكل من أشكال البساطة، والهايكو معني بالتلقائية، ومجانبة التعقيد، ولكّتها تلقائية وعفوية منوطة بالتكثيف في التقاط أكثر لحظات الحياة أهميّة، وأوفرها إلحاحاً، والتقاط مفاجاتها غير المتوقّعة، ومن ردود أفعال هذا التكثيف الإبتعاد قدر الإمكان عن الزخرفة والتكلفّ والتزوق، الذي يضرّ بمتن القصيدة وعمقها الفلسفي والتشويقي والإيحائي، وهذا لا ينال إلا بعد التمكن من أدوات الإبداع الأسلوبية والبلاغية والفنية، فاللغة البسيطة المكثّفة هي رمز الإخلاص للإنسان، والنقاء.

النموذج الخامس: الأغصان الطرية

وردُّ بالأغصان/ ينشرُ عطره بنسمة الصباح/ أنت.

في الموقد/ طرفاه بالكِّ ومحترق/ غصنٌ أخضر.

(1) سويّف، مصطفى: 125.

تقتلعه/ الغصنُ ليس طريا/ الريحُ عاتية.

أغصانُ الحمضيات/ رمادٌ في تنورأمي الطيني/ حلفةُ شواء

لا ينحني/ على الغصن وردتان/ ويمامة

لا يمكن/ اعتذارالريح/ لغصن مكسور⁽¹⁾

الغصن في نموذج الشاعر علامة سيميائية عن الحياة والخضرة والنماء والتجدد، في حين أن الريح تضمُّ علامة القوة الخاشمة التي لا تفرق بين أخضر ويابس، بين ظالم ومظلوم، بين صالح وطالح، بين طفل ومقاتل، وبين هاتين العلامتين ثمة علامة محايدة تدعو إلى الجمال بغض النظر إلى المحيط المجاور، نظيفاً كان أو ملوثاً، يدعو إلى الجمال من دون مقاومة أو اضطهاد، من دون صمود أو هجوم، هذه العلامة هي: الورد، التي تبتُّ جمالها وعطرها إلى الجميع العدو والصديق العنيف والبريء، وهذه الثلاثية ينطلق الشاعر بها ليطرح استراتيجيته من الحياة التي تتناوب فيها ثنائية القهرة والأمل الحياة والفناء، الصبر والموت. لقد بثَّ الشاعر تجربته بالحياة من خلال الحياة ونقدها والتصرف الحرَّ بها، ومن خلال العلامات السيميائية الطبيعية غير الغريبة عن المحيط.

ومن خلال الضمير المنفصل للمخاطب (أنتِ)، تظهر الأنثى الموازية لعلامة الورد، أو العطر أو نسمة الصباح، أو حتّى الخضرة التي ترمز ضمن ما ترمز إليه، إلى الخصوبة المقترنة بالغصن النديّ الطريّ، أنتِ معادلاً موضوعياً للحبِّ والجمال والتفتح والربيع، ولكن في الطرف الآخر هناك موقد وتنور، يحرق الغصن الأخضر، ويجعله رماداً، وهناك استعارة حاضرة لشعور الفقد الدالّ على الصراع الأزلي بين الحياة والموت، بين الاخضرار والاحتراق، بين الحنان (الأم) والخبز والأصالة؛ والباقي والزائل.

والريح تقتلع ما يقف أمامها من دون رحمة أو رأفة، الريح سلطة قاهرة، أما الغصن الرطب فهو الشعوب المقاومة، الذي يريد الحياة في زمن القهر، ويريد العيش الكريم في زمن الاضطهاد. ولكن على الرغم من الانكسار والقهر ثمة يمامة سلام، وثمة عطر زهرة، وثمة مقاومة للانحناء، ليبقى الفعل الأصيل المقاوم، الذي يأبى الاستلام والاعتذار والتقهقر. لقد ابتعد الهايكو عن الموضوعات التي تأسست عليه، من سخرية وبساطة، وتحول إلى عمق في الحياة والالتجاء إلى الحلم من واقع اغترابي مليء بالتناقضات والصراعات بين التقاليد والحداثة، وصارت قصائد الهايكو تجسّد الحقيقة، التي هي ليست بالضرورة جميلة، فالحياة ليست كلّها مشرقة بهيئة خلابة زاهية،

(1) كريم فارس: 27-28.

لقد غير الهايكو كثيراً من أنماطه الفنية، فصار يلجأ بقوة إلى الرمز والاستعارة والتجسيد والتسجيل والتشخيص، في محاولة لإزالة التقليديّة في أنماطه المعروفة، فالهايكو الحدائوي على قطيعة من الرومانسيّة المستندة إلى الأبعاد الرمزيّة والتجريديّة والسرياليّة⁽¹⁾.

النموذج السادس: للروح ابتسامة

مبتسمان/ يجريان وبنصف عناق/ زخات مطر.

الريح تقلّبها/ كما غيمات فوق الدار/ أرواح العاشقين.

ظماً قيظ/ نبع ماءٍ بارد

شوقٍ مستهام/ أرتشفُ الحنين عن بعدٍ

الشوقُ خفي/ في لهفة الملامح/ الوضعُ فاضح.⁽²⁾

تنتشر في مقاطع الهايكو الشعريّة هنا الجمل الاسميّة، وهي من خصائص الهايكو ومميّزاتها، واللجوء إلى الطبيعة، من أجل الانفكاك من أتعاب الحياة والتزامتها، فالهايكو فرصة للترويح عن النفس، وكأنّ الجمل القصيرة المتتاليّة تواكب معنى القصيدة بزخات مطر، والريح تقبلها، وهذا ما يولّد موسيقى عالية، ونغمة متفائلة بالحياة، والتجدّد والحيويّة، ويوحى تكرار ألفاظ الطبيعة: (ريح، مطر، ماء، غيمات، نبع،..) بالحال الشعوريّة التي يعيشها الشاعر، من تدفق واستهامة بالحياة، وتشكيل طرائق للجمال عن طريق بناء المعنى بما يساعد على التفاؤل والانتماء إلى الجمال.

ويضاعف المدّ الصوتي في حروف العلة المتكرّر في مفردات القصيدة من قبيل: (الدار – أرواح – العاشقين – بارد – لقاء – مستهام...) الإحساس بالامتداد الروحي والحنين والشعور بالشوق إلى مهبّاج الحياة الحلال، هذه المهبّاج نجدها على سبيل المثال: (الريحُ تقلّبها، الشوقُ خفي...).

ومن ميّزات شعر الهايكو هيمنة الصور الحسيّة، والابتعاد عن الاستدعاءات العقلية، من قبيل: غيمات فوق الدار، وهي تُدرّك في حاسة البصر، ونبع ماء بارد، وتُدرّك بحاسة الذوق، وإلى آخره من الصورة المنتصرة للحواس.

(1) ظ: يوتسويا، ريو: 9.

(2) كريم فارس: 31-32.

ويوحى التساؤل بنقص العبارات التي هي ميزة في شعر الهايكو، مواكبة لنقص الحياة، فالحياة لا تبوح بكل أسرارها، كذلك قصيدة الهايكو عصبية على الفهم الكلّي، ولا بدّ من وجود النقص، المحيل إلى نقص الحياة، وكأنتها تعطي حكمة باطنية، بأنّ الإنسان مهما بلغ من علم وكمال يبقى ناقص بحاجة دائمة إلى الكمال.

وحضرت الأدوات البلاغية والفنية بالقصيدة بقوة، فالتشبيه في عبارة: (الريح تقلّبها كما غيمات فوق الدار)، والملاحظ في التشبيه الغرابة والجدة وعدم التقليد، وفي التطبيق البلاغي الواحد هناك أكثر من فنّ بلاغي، ففي هذا التشبيه هناك أيضا الاستعارة حاضرة في: الريح تقبلها، على سبيل الاستعارة المكنية، وهنا تخرج اللغة من كونها أداة نفعيّة توصيليّة إلى تمرّد بلاغي لإحداث قطيعة على مستويين، الأوّل على وضعها بوصفها أداة، والثاني على أنّها نظام يقع في إطارها اتفاق مسبق بين المرسل والمتلقّي، سواء أكانت صوتاً، أو نحواً، أو دلالة⁽¹⁾، إذ تُصبح اللغة غاية في ذاتها، في بناء شكلها المميّز الخاص، وتظهر من تجلّيات الأسلوب لغة التمرّد؛ لأنّ الأدب لا يعيد إنتاج الواقع، فهو ليس لغة إيصال للخطاب اليومي المباشر، الأدب قراءة للواقع بحسب مفهومه ونظامه ومهيمناته⁽²⁾.

والمحسنات اللفظيّة والمعنويّة حاضرة أيضا: في الطباق على سبيل المثال: (الظمأ الماء) التي تدلّ على الرغبة العاطفيّة والكبت الوجدانيّ، وعدم التصريح، تخلّف كلّ هذه الآليات البلاغية إطاراً من الثراء المعنويّ واللفظيّ، وديناميكيّة متدفّقة بالصراع بين الحرمان والقرب، بين الطبيعة الخصبة والجذب.

النموذج السابع: البحر:

كرنفال البحر/ كل هذا المطر/ لن يضرّك أو ينفّعك/ أيها البحر.

بحار نائية/ عند الغروب تعود للمرائي/ نوارس مهاجرة.

البحر منفي/ الوطن وبيت العنكبوت/ مقبرة.

قنينة الرسائل/ تتقاذفها الأمواج الصاخبة/ الأمنيات.

كرنفال البحر/ الأسماك الطائرة والنوارس/ بلون موحد⁽³⁾

(1) ظ: عياشي، منذر: 58.

(2) ظ: عياشي، منذر: 59.

(3) كريم فارس: 33-34.

يظهر البحر على أنه عتبة مركزية في إطار القصيدة السائرة عبر مسارات الضياع والحرية، الأنا والآخر، البحر سلطة أبوية مهيمنة في فرض إرادتها وقوتها، لا تتأثر إن نقص المطر أو كثر، لا يتأثر بالفيضانات، أو بالثورات التي يحاول الشعب أن يغير به واقعه، البحر قوة عظيمة مستبدة، وقدر لا يمكن تغييره أو الانفكاك منه، المطر هو هامش الشعب، وصوته الضعيف أمام قوة خارقة متمثلة بالبحر. يحاول النص أن يؤسس مرجعيته الخاصة بها، والتحرر من قتامة العالم وكثافته، ولا يرى عالماً سوى عالم النص، يقيم علاقاته بين الكلام والواقع والعالم، وعلاقته مع النصوص الأخرى، عالم بينيه الأدب ويكونه، تذوب فيه الكلمات لتنتهي ذاتها الخاص⁽¹⁾.

ويظهر في تصورات البحر أيضاً التشتت والترحال والهجرة القسرية، الحلم بالغنى والمال، المنفى-القبر-، الكرنفال، الصخب، الضجيج، الأمنيات، البعد، الفقد، المخاوف، والرغبة المكبوتة، والعجز المطلق، (لن يضرك أو ينفعك).

المقطوعات الشعرية مليئة بالكناية التي منها: قنينة الرسائل، كناية عن الرغبة في التواصل عبر البحر، والمجهول في وصول الرسائل، أو حتى الصعوبة في التواصل. والنوارس كناية عن الهجرة والأبحار في المجهول بحثاً عن مكان الأمنيات، مكان الاستقرار والمستحيل في رمزية النوارس، المقبرة كناية عن اليأس، وانعدام الأمل، وهجرة اللاعودة، اللون الموحد كناية عن انعدام التعددية والمركزية الحاكمة، والأدلجة الفكرية الصارمة التي لا تقبل بالآخر، أو المختلف المغاير. نجد أنّ المقطوعات الشعرية ممسحة، تعرض الكآبة في مقابل المزحة، والالتباس مقابل الانتشاء، والمبالغة مقابل البساطة؛ لأنّ الحزن والفكاهة أداتان لتأكيد إمكانات الإنسان وتمجيدها، في إنجازها لأعماله، ومن خلالها يُدرك المتلقي عظمة الطبيعة وهيمنتها وسلطتها الأبوية المطلقة⁽²⁾.

وتكشف استعارة المفارقة: (الأسماك الطائرة) عن الحلم الكائن بين السماء والماء، بين الحقيقة والخيال، بين الفضاء والأعماق، حلم غرائبي مشدود نحو الحرية والتحرر من القيود التي تجعل من الوطن بيت عنكبوت، وبيت العنكبوت من أوهن البيوت صراعاً، صخباً، واحتراباً. ويصوّر النصّ في نتيجته النهائية القلق المزمّن الذي يعاني منه الفرد العراقي؛ ففي وطنه غريب، يرجو الانفكاك من القيود التي تكبله وتعيق سيره الأبدي نحو الخلاص.

(1) ظ: عياشي، منذر: 135.

(2) ظ: يوتسويا، ريو: 19.

النتائج:

1. لم يلقَ الهايكو الاهتمام والعناية المطلوبة لدى العرب؛ بسبب البنية الثقافية لديهم؛ بشغفهم بالإطناب والإسهاب، والتفصيل والشرح، بخلاف متطلّبات الهايكو الفنيّة المعتمدة على الإيجاز والاقتضاب والتكثيف والاختصار، ولكننا لا نعدم جذور أوليّة في الأدب العربي، إذ تمتد وتشارك مع شعر الهايكو، من أدب فكاهة، وحكم موجزة، وومضة شعريّة تعتمد على بيت مفرد، أو شطر مكثّف العبارة، والتقاط اللحظات العابرة في الحياة، وهناك من اكتفى ببيت واحد مختزلاً تجربة كاملة، وهذا ما يصبّ في مجرى الهايكو، فضلاً عن الرباعيات والمقطعات والتوقيعات، التي ظهرت في الشعر العباسي، وشعر الطبيعة الذي ظهر بكثافة في الشعر الأندلسي.
2. امتاز الهايكو بمجموعة من الخصائص التي تميّزه من غيره من الأجناس الأدبيّة، فلا يتشابك مع غيره من الأصناف الإبداعية، ويأخذ صورته المستقلّة.
3. يحاول الشاعر في المقطع الأخير، أو الكلمة الأخيرة أن يعطي النتيجة النهائية، أو يحلّ لغز القصيدة، فتكون بمثابة العنوان المضمّر، ليدركه القارئ حول ماذا كانت القصيدة تدور، أو تتمحور، فالعبارة الأخيرة تفصح وتفهم وتجلي، وتكشف عن تصوّر يصبّ في فكرة المقطوعة.
4. توظيف الموروث الشعبي والأمثال والحكم، والواقعية، والقرب من الحياة والإنسان. وهذا التوظيف يكون بإيجاز غير مخل، بالاعتماد على سطور تشتعل بالصرامة والحدّة والتكثيف، وتؤدي الجمل الاسمية الأثر الأكبر في استجلاء الصور المواقبة لتناقضات الحياة وهمومها ومشاكلها اليوميّة، بصور حسيّة تبتعد من العمق الضبابي المخلّ في استدعائي النقدي لجوهر الأشياء، وصرمتها، فلا بدّ من الترويح عن النفوس من همومها المتفاقمة، فتكون للسخرية الهادفة مكانها في مفصال جملة وعباراته.
5. حضرت المشهديّة الدراميّة والتصعيد السينمائي، والانتقالات السريعة في قصائد الشاعر كريم فارس، وعرض وجهات النظر المختلفة تؤكّده الجمل القصيرة، ولاسيما الاسمية منها، فضلاً عن الأساليب البلاغيّة التي تؤكّد المعنى الذي يرومه الشاعر، ويظهر التوتر، ونقل الأحاسيس رؤاه وتأمّلاته وإضماراته.

قائمة المصادر والمراجع:

- أوستين، ستيفاني، وآخرون، تر: فكري محمد العتر، مقولات النقد الثقافي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.
- إيستا-كوباياشي، بريد الهايكو الياباني، تر: محمد عزيمة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 2019.
- بلقزيز، عبد الإله، أسئلة الفكر العربي المعاصر، وزارة الثقافة، عمان-الأردن، ط1، 2018.
- ريفاتير، مايكل، دلالات الشعر، تر: محمد معتصم، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط1، 1997.
- سويف، مصطفى، الأسس النفسية للإبداع النفي في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، ط3، 1970.
- طايبي، أحمد، التواصل البلاغي من المصحح به إلى المسكوت عنه، منشورات زاوية للفن والثقافة، الرباط، ط1، (1429هـ/2008).
- العبدالله، حيدر بن جواد، مهاكاة ذي الرمة. أطروحة الهايكو العربي، دار أدب للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، (1444هـ/2022م).
- عيآشي، منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.
- كريم، فارس، ما لم يرَ، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، ط1، 2023م.
- يوتسويا، ريو، تاريخ الهايكو الياباني، تر: سعيد بوكرامي، سلسلة كتاب المجلة العربي، الرياض، ط1، (1432هـ/2011م).

علماء النحوي في الهند: شهاب الدين الدولت آبادي أنموذجاً

Grammarians in India: Shihab al-Din al-Dawlatabadi as a Case Study

ط.د. رمضان علي - أ.د. محمد جواد أركين

(كلية الإلهيات، قسم العلوم الإسلامية الأساسية، فرع البلاغة واللغة العربية، جامعة دجلة، تركيا)

Ramadan ALI - Prof. Dr. M. Cevat ERGİN (Faculty of Theology, Department of Basic Islamic Sciences, Division of Arabic Language and Rhetoric, Dicle University, Turkey)

Abstract :

This study examines the historical trajectory of Arabic grammar in the Indian subcontinent, tracing its formative stages and culminating in its intellectual maturity with the distinguished figure of Qadi Shihab al-Din Ahmad ibn 'Umar al-Zawali, known as al-Dawlatabadi (d. 849 AH / 1446 CE).

The development of grammar in India unfolded through three distinct phases: transmission and commentary, independent authorship, and innovation. The third phase, epitomized by al-Dawlatabadi, marked a transition from mere reproduction and summarization to original composition and the production of concise, pedagogically refined texts that balanced fidelity to tradition with responsiveness to local educational contexts.

Al-Dawlatabadi was not solely a grammarian but a polymath, excelling in Qur'anic exegesis, Hadith, jurisprudence, and rhetoric. His interdisciplinary expertise enriched his grammatical scholarship, enabling him to integrate grammar with interpretive and rhetorical sciences. Biographical accounts emphasize his precocious brilliance and extraordinary memory, with his teacher famously remarking that "his skin, flesh, and bones were all knowledge." His most notable contributions include al-Irshad fi al-Nahw and al-Mu'afiya, a commentary on al-Kafiya.

Beyond grammar, al-Dawlatabadi authored works in rhetoric (Badi' al-Mizan) and commentaries on Arabic poetry, reflecting a holistic vision of the Arabic sciences. Indian scholars, led by al-Dawlatabadi, achieved two enduring accomplishments: the preservation of the Arabic grammatical tradition with remarkable precision, and its renewal through innovative pedagogical formats and critical methodologies. These efforts ensured the resilience and relevance of grammatical studies across generations.

Accordingly, Shihab al-Din al-Dawlatabadi should be regarded not merely as an Indian commentator on grammar, but as the founder of a distinctive grammatical tradition in India that combined preservation with innovation.

Keywords: al-Dawlatabadi, India, Grammar, al-Irshad fi al-Nahw, al-Mu'afiya Sharh al-Kafiya.

مستخلص:

يستعرض هذا المقال تاريخ علم النحو العربي في شبه القارة الهندية، متتبعاً جذوره وأطواره، ليصل إلى ذروة تطوره وتميزه مع شخصية فذة تجسد نضج الدرس النحوي في تلك البلاد، وهي شخصية القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي، المعروف بالدولت آبادي (ت. 849هـ/1446م).

وقد مر علم النحو بثلاث مراحل في الهند وهي المرحلة الأولى (النقل والشرح) المرحلة الثانية (التأليف المستقل) المرحلة الثالثة (الذروة والابتكار): وهي المرحلة التي يمثلها شهاب الدين الدولت آبادي، حيث انتقل النحو الهندي من مرحلة النقل والتلخيص إلى مرحلة التأليف المبتكر والمتن المحكم الذي يجمع بين الأصالة والملاءمة للبيئة التعليمية المحلية.

لم يكن الدولت آبادي نحويًا فحسب، بل كان عالماً موسوعياً، إماماً في التفسير والحديث والفقه وأصوله والبلاغة. وقد منحه هذا التنوع المعرفي عمقاً غير مسبوق في تناول النحو، حيث ربطه بعلوم التفسير والبلاغة. وقد أجمع من ترجم له على نبوغه المبكر وقوة حفظه، حتى أن أستاذه وصفه قائلاً: "قد أتاني رجل جلده علم ولحمه علم وعظمه علم". ويتمثل الإسهام الأبرز للدولت آبادي في مؤلفين رئيسيين وهما: "الإرشاد في النحو" و "المعافية شرح الكافية".

لم ينظر الدولت آبادي إلى النحو كعلم نظري مجرد، بل ربطه مباشرة بتفسير القرآن الكريم، كما ألف في البلاغة "بديع الميزان" وشرح قصائد عربية، مما يظهر نظرة تكاملية للعلوم العربية. لقد نجح العلماء الهنود، وعلى رأسهم الدولت آبادي، في أمرين أساسيين: الحفظ: إذ حافظوا على صلب التراث النحوي العربي ونقلوه بدقة. التجديد: حيث قدموا صيغاً تعليمية جديدة (كالمتون المختصرة المحكمة) وشرحوا بمنهجية نقدية، مما أضفى على الدرس النحوي ديمومة ومرونة سمحت باستمراره وإفادته للأجيال، وبذلك يعد شهاب الدين الدولت آبادي ليس مجرد عالم هندي شرح النحو، بل هو مؤسس تقليد نحوي هندي متميز.

الكلمات المفتاحية: الدولت آبادي، الهند، النحو، الإرشاد في النحو، المعافية شرح الكافية.

مقدمة:

يُعَدُّ علم النحو العربي دعامةً أساسيةً من دعائم الحضارة الإسلامية، ودُرَّةً فريدةً في تاج العلوم اللغوية التي تبلورت لحماية لغة القرآن الكريم من التحريف واللحن. نشأ هذا العلم استجابةً لتحدي تاريخي، تمثل في اتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاط العرب بالأمم الأخرى، مما هدد نقاء العربية التي كانت قائمةً قبل ذلك على السليقة والفطرة. وقد كان اللحن، أو الخطأ في الإعراب والنطق، النذير الذي دفع بأولي الغيرة من العلماء، بدءاً من أبي الأسود الدؤلي مروراً بسيبويه، إلى صياغة قواعد منهجية تحفظ للغة سلامتها، وتصون للنصوص المقدسة قدسيتها.

ومع انتشار الإسلام خارج الحدود العربية، سافر هذا العلم، حاملاً معه رسالة الحفاظ على الهوية اللغوية والدينية، إلى أقصى المشارق، حيث وجد في شبه القارة الهندية تربة خصبة للتأصل والازدهار. فقد تعلق أبناء تلك البلاد بالعربية حُباً وشغفاً، لكونها لغة الوحي، فكان لزاماً عليهم تعلمها وفهم قواعدها كمدخل لفهم الدين. وهكذا انتقل النحو العربي إلى الهند، ليس كعلم مستورد فحسب، بل كميدان خصب للإبداع والتأليف. فانتقلت الدراسة من مرحلة الاعتماد على الشروح والحواشي للكتب العربية الوافدة، إلى مرحلة التأليف المستقل والتبحر العميق، حيث أفرزت البيئة الهندية علماء أفاضاً مثل القاضي شهاب الدين الدولت آبادي، الذي لُقّب بـ"ابن حاجب الهند"، وأسهموا بمتونهم وشروحهم، ككتاب "الإرشاد في النحو" وشرح "المعافية على الكافية"، في إغناء المكتبة النحوية وتطوير مناهج التدريس.

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع رحلة علم النحو في الهند، مع التركيز بشكل خاص على الدور المحوري للقاضي شهاب الدين الدولت آبادي كنموذج لأعلى مراحل التطور والنضج التي بلغها هذا العلم في البيئة الهندية. كما ستسعى إلى تحليل الأبعاد المختلفة لأهمية علم النحو في الحفاظ على القرآن والحديث، وصون اللغة العربية، وتشكيل المنظومة التعليمية، انطلاقاً من الإرث العلمي الغني الذي خلفه علماء الهند، وعلى رأسهم الدولت آبادي، مما يسלט الضوء على مساهمة الحضارة الهندية الإسلامية الإيجابية والفاعلة في حفظ التراث العربي الإسلامي وتطويره.

1. النحو العربي في شبه القارة الهندية:

1.1. نشأة علم النحو وتطوره في الهند:

كان العرب قبل الإسلام، يتكلمون العربية الصحيحة بالسليقة (بالطبيعة والفطرة) على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم، وكانوا قليلي الاتصال بمن حولهم من الأعاجم، فكان بين الفرس وعرب الجزيرة، والروم وعرب الشام شيء من الاتصال، يدخل بعض هؤلاء الجزيرة العربية، ويتعلمون اللغة، وينطقونها تقليداً¹.

ولم يكن للعرب قانون للإعراب قبل الإسلام بل كانت السليقة قائمة محل الإعراب، يقولون فيعربون وقد قال الشاعر: ولستُ بنحوي يلوكُ لِسَانُهُ... وَلَكِنْ سَلِيْقِي أَقْوَلُ فَاعْرَبْ² أَيُّ أَجْرِي عَلَى طَبِيعَتِي وَسَجِيَّتِي وَلَا أَلْحَنُ³. ولما جاء الإسلام وانتشر خارج الجزيرة العربية، اضطر العرب للاختلاط بغيرهم، وزاد اتصالهم بالأعاجم في سائر الأمصار، وتبادلوا معهم التجارة والمنافع؛ فأخذ الفساد يدب في تلك السليقة العربية، وظهر اللحن بين بعض العرب، علاوة على الدخلاء من الأعاجم⁴. وعلم النحو إنما احتاج الناس إليه حين بدأ لسانهم يختلف ويخطئون في الكلام، وإن أول من وَضَعَ علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه،⁵ فذهب أبو الأسود الدؤلي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له: لقد فسد لسان العرب، فوضع له شيئاً من القواعد وقال له: انْحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك، فسمي هذا الفن بعلم النحو، وفي هذا الشأن قصص كثيرة تُذكر في سبب تأليف هذا العلم.⁶

عندما انتشر الإسلام في بلاد الهند على أيدي المسلمين وانتشرت اللغة العربية وآدابها معه، وتعلق أبناء تلك البلاد باللغة العربية شغفاً وعشفاً؛ لكونها لغة القرآن الكريم ولغة الدين، ولأهمية هذه اللغة بين المسلمين ودورها البارز في تفسير القرآن الكريم، أصبح تعلم اللغة العربية وعلومها ضرورة ماسة وحاجة ملحة، فلذلك كان هناك

¹ محمد عبد العزيز النجار، ضياء السالك إلى أوضاع المسالك (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1999)، 8/1.

² خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2000)، 595/2.

³ أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط1، 1993)، 161/10.

⁴ النجار، ضياء السالك إلى أوضاع المسالك 8/1؛ سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي (دمشق: دار الفكر، 1978)، 8.

⁵ سلمة بن مسلم العوتبي الصُّحاري، الإبانة في اللغة العربية، تحقيق: مجموعة محققين (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 1999)، 20/1؛ علي عبد الواحد وافي، علم اللغة (مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ط2، 2004)، 69؛ الأفغاني، من تاريخ النحو العربي، 27.

⁶ أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري كمال الدين الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي (الأردن: مكتبة المنار، ط3، 1985)، 18؛ أحمد شوقي عبد السلام ضيف، المدارس النحوية (القاهرة: دار المعارف، ط7، 1968)، 14-15.

ضرورة هامة لتعلم اللغة العربية ودراسة قواعده والتوجه نحوها والإحاطة بها وإتقان مفرداتها في تلك المناطق، ومما لا شك فيه أن تعلم اللغة العربية وقواعدها لا يتم إلا بتعلم النحو العربي؛ لكونه جزءاً هاماً لا يتجزأ من اللغة العربية وعلومها، ولهذا السبب بدأت دراسة النحو في بلاد الهند، فنمت جذوره وتطورت مادته وكثر الانشغال به في المدارس الدينية والمساجد العامة وحلقات التدريس، فقام بعض العلماء في تلك البلاد بوضع الشروح والحواشي على مؤلفات النحو التي وصلت إليهم من البلاد العربية. وتلك الشروح والحواشي لم تكن مستقلة إنما كانت معتمدة على الكتب النحوية الأخرى ككتب ابن هشام وابن الحاجب وابن مالك وغيرهم من أئمة النحو المشهورين، واعتبرت هذه الكتب مصادر هامة في النحو على امتداد الأراضي الهندية وأساساً لا يمكن الاستغناء عنها كلما اقتضت الحاجة إليها.¹

وهذا الشكل ظل البحث في علم النحو ودراسته قائماً، واستمر تعلّمه وتعليمه حتى جاء القرن الثامن الهجري، فوجدنا فيه أحد علماء بلاد الهند وهو الشيخ سراج الدين عثمان الأودي (758هـ/1357م) قد ألف كتاباً في النحو وسماه "هداية النحو"، وهو كتاب مستقل ومقبول ومتداول بأيدي الناس وطلاب العلم في بلاد الهند، وهذا الكتاب هو أول كتاب مستقل يُدوّن في هذا الفن بشكله العلمي،² وقد قيل أن أول كتاب في النحو في الهند هو "تعليق الفرائد" لمحمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني، إلا أن هنالك من قد سبقه في هذا المجال كالشيخ يوسف بن جمال الملتاني الذي ألف "شرح لب الألباب في علم الإعراب للقاضي البيضاوي"، فالدماميني ألف كتابه بعد سنة (820هـ/1418م) أثناء وصوله إلى الهند من مصر، والملتاني صنف كتابه قبل وفاته في سنة (790هـ/1389م)،³ وقيل أول من صنف في النحو العربي هو حسن بن محمد الصغاني اللاهوري (650هـ/1252م) فقد أَلَّفَ كُتُباً في اللغة، وكتَبَ شرحاً على أبيات المفصل للزمخشري.⁴

إن أول من سافر إلى شبه القارة الهندية من النحاة العرب وصنف في النحو العربي هو إمام النحاة والعلامة أبو بكر بدر الدين محمد بن محمد الدماميني المصري، المتوفى (828هـ/1425م) وصنف ثلاثة كتب في النحو العربي

¹ محمود نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، مجلة الإلهيات، جامعة دجلة 2/26 (2023)، 410-411.

² عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحُسَني، الثقافة الإسلامية في الهند، (دمشق: مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، 1958)، 21؛ محمد حفظ الرحمن بن محب الرحمن الكُمَلائي، البدور المضية في تراجم الحنفية (القاهرة: دار صالح، 2018)، 277/12؛ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 411.

³ أحمد إدريس، الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998)، 87.

⁴ عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحُسَني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسعى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) (بيروت: دار ابن حزم، 1999)، 91-93؛ محمود أحمد، "دراسة مخطوط: شرح مراح الأرواح للمهدي الحنفي"، مجلة القسم العربي 25 (2018)، 347.

أولها: تعليق الفرائد وهو شرح على تحصيل الفرائد لابن مالك وثانها: المنهل الصافي وهو شرح على "الوافي" لمحمد بن عثمان البلخي، وثالثها: تحفة الغريب وهو أيضا شرح على مغني اللبيب لابن هشام المتوفى (1360هـ/761م).¹ وإن أول من توغل في مجال النحو العربي غاية التوغل هو إمام النحو العربي في الهند القاضي شهاب الدين بن شمس بن عمر الدولة آبادي (ت.849هـ/1446م)، وهو الذي قال عنه أستاذه كان جلده عالماً ولحمه علماً وعظمه علماً،² وقد ذكره المؤرخون بلقب "ابن حاجب شبه القارة الهندية" لمهارته وحذاقته وتبحره في النحو العربي وقد صنف متن في النحو العربي "وهو متنٌ لطيفٌ تعمق في تهذيبه كلَّ التعمق، وتأنق في ترتيبه حق التأنق"، وسماه "بالإرشاد في النحو"³ وله أيضا شرح على الكافية لابن الحاجب المسمى بالهندي على الكافية أو المعافية شرح على الكافية.⁴

واعتبر القاضي شهاب الدين الدولة آبادي من أفضل النحاة وكبار مؤلفي النحو في بلاد الهند ومن أهم حاملي رايته في القرن التاسع الهجري؛ حيث قام بتأليف مؤلفات مميزة، وترك متوناً وشروحاً مهمة، ولا سيما في كتابيه النحويين "الإرشاد في النحو" و"المعافية شرح على الكافية"،⁵ فالإرشاد من الكتب المهمة في النحو العربي وقد حُكِمَ عليه بأنه أرفع منزلة من كافية ابن الحاجب في بلاد الهند على الرغم من أن الإرشاد لم يشتهر كاشتهار الكافية إلا أنه استطاع أن يكتسب مكانة مرموقة في المدارس الدينية العربية، وقد قام بشرحه عدد كبير من النحاة والدارسين، وعلقوا عليه بتعليقات مفيدة وملاحظات مهمة انتفع بها الباحثون وطلاب العلم، وكتاب المعافية يُعدُّ من أهم وأدقِّ الشروح النافعة على كافية ابن الحاجب وقد اشتهر في بلاد الهند، ونال الإقبال عليه من قبل جمهور النحاة في محيطه الجغرافي، ونال الرضا والاستحسان من قبل النقاد لجودة الشرح وبراعة التأليف، وبسبب أهميته وقيمتها العلمية ومادته الغنية ووضعت عليه شروح كثيرة وإضافات مفيدة، وبمرور الوقت تطور النحو في بلاد الهند وكان أغلب من أتى بعد القاضي شهاب الدين الدولة آبادي يستفيدون من كتابيه النحويين (الإرشاد

¹ أحمد، "دراسة مخطوط: شرح مراح الأرواح للمهدي الحنفي"، 348.

² محمد صديق خان القنوجي، أبجد العلوم، (بيروت: دار ابن حزم، 2002)، 694-695.

³ مصطفى عبد الله القسطنطيني كاتب جلي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1941)، 68/1؛ خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط5، 2002)، 187/1.

⁴ الزركلي، الأعلام 187/1؛ أحمد، "دراسة مخطوط: شرح مراح الأرواح للمهدي الحنفي"، 348.

⁵ الحُسنِي، الثقافة الإسلامية في الهند، 20؛ إدريس، الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين، 87؛ نعيان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 411-412.

والمعافية) ويأخذون عنهما ويعتمدون عليهما في التعلم والتعليم والدراسة والبحث في هذا المجال، وهم بذلك قدموا في بلاد الهند مساهمة مهمة ومشاركة قوية في تطوير دراسة علم النحو وتوسعة قواعده.¹ ثم تطور وازدهر علم النحو عبر القرون، وتنوعت الدراسات عنه وكثر التصنيف فيه وتطورت موضوعاته بالتدرج تطوراً واسعاً حتى ظهرت مجموعة كبيرة من النحاة واللغويين البارعين، فقاموا بتوضيح المشكلات وشرح المنظومات النحوية، وتأليف المتون النحوية والحواشي والشروح بمختلف اللغات، واعتكفوا على أمهات الكتب النحوية ودرسوها واعتنوا بها وقوّموها، واعترضوا عليها وحكّموها ونقدوها ضمن موازين علمية، وكان من النحاة واللغويين الذين شاركوا في هذا الميدان،² العلامة سعد الدين الخير آبادي أحد العلماء المبرزين في النحو والعربية والفقه والأصول، وصنف في النحو العربي شرحاً على المصباح في النحو للناصر المطرزي الخوارزمي، وللسعد أيضاً شرح على كافية ابن الحاجب وغيرها من الشروح.³ ثم سيطر على ميدان النحو العلامة الصفي بن النصير الردلوي، وهو حفيد القاضي شهاب الدين الدولت آبادي وصاحبه، فكتب "غاية التحقيق" وهو شرح بسيط على كافية ابن الحاجب في النحو و"دستور المبتدي" رسالة في التصريف.⁴

2.1. أهمية علم النحو في الهند:

لعلم النحو أهمية كبيرة في بلاد الهند، فيعد من أشهر علوم اللغة العربية التي انتشرت مع انتشار الإسلام في تلك البلاد، وله مكانة عالية وتأثير كبير؛ لما له من علاقة وطيدة بفهم القرآن الكريم ومعانيه وفهم الحديث الشريف ومقاصده، ولعلم النحو ارتباط كبير بكيفية تراكيب الجمل وأداء الألفاظ، وكذلك يساعد الناس بصون اللسان من الزلات واللحن، والتمكن من قدرة الإفهام بالنطق السليم في الكلام والمحادثة، ولهذه الأسباب قام علماء النحو واللغويون في بلاد الهند بالعناية به ودراسته وتدريبه والحفاظ عليه، ونذكر بعض هذه الأسباب بشكل مفصل التي جعلت علم النحو موضع عناية لعلماء النحو في بلاد الهند وهي على النحو الآتي:⁵

¹ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 411-412.

² الحُسنِي، الثقافة الإسلامية في الهند، 20؛ إدريس، الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين، 87؛ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 411-412.

³ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/252.

⁴ الكُمَيْلَاي، البدور المضية في تراجم الحنفية، 4/281.

⁵ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 405.

بما أن لغة القرآن الكريم هي العربية فقد اهتم علماء الهند باللغة العربية وعلومها، ومن أهم علومها النحو العربي وهو أحد أدوات فهم القرآن الكريم وعلومه والاطلاع على معانيه وبيانه، وعلم النحو يساعد على توضيح وفهم نصوص القرآن الكريم وإدراك معانيه والوقوف على أسراره وأهدافه، ويحافظ على النطق السليم لآياته بطريقة صحيحة، فإننا نجد كثيراً من اللغويين والنحويين من بلاد الهند قد اهتموا بقواعده ومسائله أثناء انتشار الإسلام في بلادهم، ودرسوه في المدارس الدينية، واعتكفوا عليه تعلماً وتعليماً، وكتبوا الشروح والحواشي على المتون النحوية، وأعطوا لذلك أمثلة جميلة بجهودهم الكبيرة، ومصنفاتهم المتقنة التي لا تزال آثارها تلمع للعلماء والنحويين في المكتبات الإسلامية وكان من أشهر تلك المصنفات:¹

كتاب "الْبَحْرُ المَوْجِ والسراج الوهَّاج" في تفسير القرآن الكريم للقاضي شهاب الدين الدولت آبادي وهو مؤلف بعدة مجلدات باللغة الفارسية؛ اعتنى فيه لبيان التراكيب النحوية ووجوه الفصل والوصل وغير ذلك أشد اعتناء،² وقام بترجمته من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية الشيخ منور بن عبد المجيد اللاهوري،³ وكتاب نور النبي تفسير القرآن للشيخ حسين بن خالد الناكوري، وهو كتابٌ في عدة مجلدات يشتمل على حل التراكيب النحوية وتوضيح المعاني،⁴ والتفسير المظهري للقاضي ثناء الله الباني بتي، وهو باللغة العربية في سبعة مجلدات كبار، اهتم واعتنى هذا الكتاب بالوجوه الإعرابية والتراكيب النحوية بشكل كبير،⁵ وكذلك رسالة في النحو للشيخ علي بن أحمد المهائبي، وهي رسالة عجيبة في مضمونها حيث قام صاحبها بتقديم وجوه كثيرة من الإعراب في الآيات القرآنية التي ذكرها في رسالته، وهذا يدل على براعته اللغوية وقدرته الفائقة في علم النحو ومسائله البليغة، وغير ذلك من كتب علماء النحو المؤلفة في تلك البلاد.⁶

فالمفسرون القدامى قد أشاروا إلى أهمية النحو العربي ودوره المهم في تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه، فقد ذكر ابن عَطِيَّة في كتابه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، وقال: "إنَّ إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأنَّ

¹ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 405.

² الحُسَني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233؛ الحُسَني، الثقافة الإسلامية في الهند، 164.

³ الحُسَني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 5/652؛ الحُسَني، الثقافة الإسلامية في الهند، 165.

⁴ الحُسَني، الثقافة الإسلامية في الهند، 164.

⁵ الحُسَني، الثقافة الإسلامية في الهند، 166.

⁶ غلام علي آزاد الحسيني الواسطي البلكرامي، سبحة المرجان في آثار هندستان، تحقيق: محمد سعيد الطريحي (بيروت: دار الرافدين، ط 2015، 1)، 90.

بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع“،¹ وأيضاً قد ذكر ابن وهب في كتابه "الجامع" فقال: "أعربوا القرآن فإنه عربي"²، وهذا ما أكدّه عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز في علم المعاني" لمن كان يهمل علم النحو ويستصغره فقال: "وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدّم، وأشبهه بأن يكون صدّاً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه"³، وبناءً على هذا ندرك أن الجهل بالحركة الإعرابية في الآيات القرآنية قد يؤدي إلى تحريف المعاني عن مقاصدها، ويُفضي إلى الإتيان بدلالات تتضمن الكفر بسبب القراءة الخاطئة وتغيير الحركة الإعرابية الصحيحة، وهذه المعرفة لا يمكن إدراكها ولا تؤتي ثمارها إلا بالنحو العربي.⁴

وعلم النحو له مكانةٌ ودورٌ وأهمية كبيرة في ضبط رواية علم الحديث، وقد أدرك علماء بلاد الهند والسند دور علم النحو في فهم الأحاديث النبوية ودلالة تراكيها ودقة ألفاظها، ومن هذا المنطلق بذلوا جهوداً كبيرة ونشاطاً واسعاً في هذا الشأن رغبةً بالحفاظ على أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وضبط سنته حتى لا تتغير أحاديثه ولا ينحرف كلامه، فقاموا بتوظيف علم النحو والاستفادة من قواعده لبيان الأحكام الشرعية واستنباط مقاصدها النبيلة، وتركوا في هذا المجال آثاراً كثيرة ازدهرت بها المكتبة الإسلامية، وكان في مقدمة تلك المؤلفات في علم الحديث: كتاب "مشارك الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية لحسن بن محمد الصّغاني" وهذا الكتاب ألقاه الصّغاني في علم الحديث، وقام بتقسيمه إلى اثني عشر باباً وكل باب مقسماً أيضاً إلى عدد من الفصول، فقد رتبته ترتيباً لم يسبق إليه، ولم يتابع عليه، فلم يرتبه على الأبواب، ولا على المسانيد، ولا على حروف المعجم، وإنما رتبته على الكلمات الأولى على أبواب النحو؛ مبتدئاً (بمن) الموصولة، ثم (من) الاستفهامية، ثم بالأداة (إن)، ثم بالأداة (إذا)، وبهذا الشكل أكمله، وهذا التقسيم له أهمية علمية وقيمة لغوية لدراسة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.⁶

¹ عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2001)، 40/1.

² أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي، تفسير القرآن من الجامع، تحقيق: ميكوش موراني (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003)، 42/3.

³ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: حمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة مدني، ط1، 1992)، 28/1.

⁴ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 406.

⁵ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 407.

⁶ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي، الجمع بين الصحيحين (الرياض: دار المحقق للنشر والتوزيع، 1999)، 11/1.

ولعل هذا الاهتمام بالنحو العربي والحرص على تعلمه والاعتماد عليه لاستنباط الاحكام الشرعية جاء بناء على إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تعلم النحو وفهم ضوابطه وأشكاله الإعرابية والاهتمام به،¹ فقد جاء في بعض الأحاديث المروية أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: "أرشدوا أحمك، فإنه قد ضل"،² ويستفاد من هذا التوجيه النبوي بالاهتمام بصحة الكلام وضبط حركاته الإعرابية وتأديته على الوجه الصحيح وشكله الأصلي.³

ولهذا العلم دور كبير في صون اللغة العربية وحمايتها من اللحن والتحريف؛ لأن علم النحو بقواعده الدقيقة يشكل مادة من أهم مواد اللغة العربية وعلومها، لمساهمتها في حماية اللغة العربية وحفظها من التغيير والفساد، والحرص على النطق لألفاظ الكلمات ومعانيها وفق الأسس السليمة والنطق الصحيح، فقد قام العلماء في بلاد الهند بتعلم اللغة العربية وخاصة علم النحو، واعتنوا بتطبيقه في المحادثات العامة والرسائل المتداولة، كما أنهم قاموا بإقرار اللغة العربية وعلم النحو في المدارس الدينية وتدريسهما ضمن العلوم الشرعية والعلمية، وجعلوا تعلم علم النحو من أهم العلوم التي ينبغي تعلمها ودراستها دراسة كاملة تامة، لما له من دور واضح وتأثير بالغ في التعرف على صحة التراكيب العربية وخطئها، وبيان ما يتعلق بألفاظ الكلمات وحركاتها الإعرابية،⁴ قال إسحاق بن خلف البهراني وهو يمدح النحو العربي ويشدد على ظاهرة اللحن:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ *** وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

فَإِذَا أَرَدْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا *** فَأَجْلُهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسُنِ⁵

وقد اهتم علماء النحو في بلاد الهند والسند بالتراكيب الدلالية للكلمات والمفردات بشكل عام وخاصة بالمفردات الموجودة في النصوص القرآنية، فكل من يقرأ الكتب التفسيرية التي اعتنت بالجانب اللغوي الدلالي وارتباطها بالبلاغة، كتفسير "التفسير المظهري" للقاضي ثناء الله الباني بتي، وتفسير "نور النبي تفسير القرآن" للشيخ حسين بن خالد الناكوري، وغيرها من كتب التفاسير التي تهتم بالإعراب ووجوه المتعددة بشكل كبير، فإنه يدرك كثيراً من هذه الجوانب اللغوية والبلاغية وأهميتها الدلالية، ويقف على دورهم البناء في تفسير هذه الوجوه

¹ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 407.

² أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: عادل مرشد (بيروت: دار الرسالة العالمية، 2018)، 495/4.

³ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ت. حقيق: محمد علي النجار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، د.ت)، 10/2.

⁴ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 408.

⁵ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1997، 3)، 19/2.

اللغوية وأهمية أبعادها في تحديد المعاني وصياغة التراكيب،¹ وقد أشار السكاكي لهذا الجانب في كتابه "مفتاح العلوم" وقال: "أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلمات على بعض ورعاية الكلمات على أنواعها المفردة وما هي في حكمها".²

وقد أدرك علماء الهند عبر تاريخهم الممتد بين القديم والحديث الأهمية المحورية للنحو العربي، فركزوا له عنايةً استثنائيةً في مجالي التعلّم والتعليم. وقد تجلّت هذه العناية في إدماج مجموعة من أمهات الكتب النحوية ضمن المناهج الدراسية في المؤسسات التعليمية الهندية. وحرصوا على تشجيع طلابهم على تعلّمه وحفظ قواعده تشجيعاً كبيراً، إيماناً منهم بدوره التأسيسي في تمكين الدارسين من امتلاك ناصية اللغة العربية، والوصول إلى فهم سليم للنصوص الدينية والأدبية.³

وبتأثير مباشر من توجيهات المدرّسين وتشجيعهم على تعلّم النحو العربي وحفظه والعناية به، أظهر تلاميذ المدارس والمساجد والمعاهد الدينية التقليدية في منطقة مليبار ببلاد الهند اهتماماً بالغاً بعلم النحو، وعنايةً فائقةً بتحصيله. وقد تجلّى ذلك في إقبالهم الجادّ على دراسته، وإنفاقهم معظم أوقاتهم في تعلّم قواعده، وتحقيق معاني الألفاظ، والوقوف على وجوه تراكيبها، وتمييز أحكام إعرابها وبنائها،⁴ ويشير ابن مالك إلى فضل علم النحو ومكانته الرفيعة بين سائر العلوم، مؤكداً دوره الأساس في تقويم الألسنة وصونها من الخطأ؛ إذ يرى أن إتقانه معياراً للرقّي العلمي والاجتماعي، وأن من لم يُحكّم لا ينال المنزلة المرموقة في المجتمع، ويقول:

وَالنَّفْسُ إِنْ تَعَدِمَ سَنَاهُ فِي سِنَةٍ *** فَالنَّحْوُ صَلاَحُ الألسِنَةِ

وَجَلْوَةُ المَفْهُومِ ذَا إِدْعَانٍ ***⁵ بِهِ انْكِشَافُ حُجُبِ المَعَانِي

¹ نعسان، "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية"، 408.

² يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1987، 2)، 75.

³ المليباري، مساهمة مليبار في النحو العربي، https://www.nidaulhind.com/2016/03/blog-post_26.html، تاريخ الاطلاع على المقال 12.08.2025.

⁴ المليباري، مساهمة مليبار في النحو العربي، https://www.nidaulhind.com/2016/03/blog-post_26.html، تاريخ الاطلاع على المقال 12.08.2025.

⁵ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، شرح الكافية الشافية، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي (مكة: جامعة أم القرى-كلية الشريعة، 1982)، 39/1.

2. سيرة عالم النحو شهاب الدين الدولت آبادي:

1.2. اسمه ولقبه ونسبه:

هو الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة أحمد بن عمر الزاوي شهاب الدين بن شمس الدين الدولت آبادي الهندي الحنفي، ولقب بقاضي القضاة وملك العلماء ويعتبر أحد الأئمة بأرض الهند.¹ وكان القاضي شهاب الدين إماماً مقدماً في النحو والبلاغة والفقه والتفسير، أما عن نسبه فقد ذكر العلماء أنه كان من عائلة الشيوخ الذين هاجروا من مدينة غزنة إلى الهند.²

وقد نُسب القاضي شهاب الدين إلى مدينة "دولت آباد" وهي المدينة التي ولد ونشأ فيها، وتقع في القسم الجنوبي من الهند المسمى بالدكن، وتبعد عن عاصمة الهند دهلي (1126 كم) إلى الجنوب. ولقب "بالهندي" نسبة إلى الهند وقد اشتهر شهاب الدين الدولت آبادي بهذا اللقب، بحيث إذا أُطلق لقب الهندي فإنه يكون المقصود به، وهذا يدل على أنه أكثر علماء الهند شهرة وأعظمهم قدراً في العصر الذي عاش فيه.³

2.2. ولادته ونشأته:

ولد شهاب الدين الدولت آبادي بمدينة (دولت آباد دهلي) في الهند في أواخر القرن الثامن الهجري بعد السبعمئة من الهجرة،⁴ ونشأ فيها وقرأ العلم على القاضي عبد المقتدر بن ركن الدين الشريحي الكندي وخواجي الدهلوي فبرز في الفقه والأصول والعربية وصار إماماً في العلوم لا يضاهيه أحد.⁵

اتّصف شهاب الدين بذكاءٍ مفرط، وسيلانٍ ذهني، وسرعةٍ إدراكٍ، وقوّةٍ حفظٍ، كما عُرف بشدّة انهماكه في المطالعة والتأمّل في الكتب؛ إذ لم تكن نفسه تشبع من طلب العلم، ولا ترتوي من القراءة، ولا تملّ من الاشتغال،

¹ إسماعيل باشا البيغدادي، هدية العارفين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1951)، 1/127؛ الحُسنّي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2010)، 4/309؛ وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، بشير بن جواد القيسي، عماد بن محمد البيغدادي، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (بريطانيا: مجلة الحكمة، 2003)، 1/248.

² شهاب الدين أحمد بن عمر الدولت آبادي الزاوي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق: هدى صلاح رشيد (الأردن: ألفا للوثائق، ط 2021)، 1، قسم الدراسة، 19.

³ شهاب الدين الدولت آبادي، تحقيق ودراسة شرح كافية ابن الحاجب، أطروحة دكتوراه، تحقيق: عوض شحاته (القاهرة: جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية، 1989)، 12.

⁴ الحُسنّي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233؛ الزركلي، الأعلام، 1/187.

⁵ الحُسنّي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233.

ولا تكلّ من البحث والدراسة، في دلالة واضحة على شغفه المعرفي المتواصل وجِدّه العلميّ الدؤوب،¹ وقيل: إنه لما حضر عند أستاذه القاضي عبد المقتدر بن ركن الدين قال القاضي في حقه: "قد أتاني رجل جلده علم ولحمه علم وعظمه علم".²

وعندما توجّه موكب تيمورلنك إلى الهند، خرج شهابُ الدين بصحبة أستاذه خواجي الدهلوي قاصدين كالبي، حيث أقام الأستاذ هناك، في حين واصل شهابُ الدين رحلته إلى جونبور، التي كانت آنذاك حاضرة سلاطين الدولة الشرقية ومركزاً علمياً بارزاً تخرّج فيه عددٌ كبير من العلماء والمشايخ. وقد اغتنم السلطان إبراهيم شاه الشرقي قدومه، فأكرمه ولقّبه بـ«ملك العلماء». وأقام شهابُ الدين في جونبور مشغولاً بالتدريس والتأليف، مفيداً ومحرّراً، ومتميّزاً بجودة التصنيف وحسن الإفادة.³ وحظي شهابُ الدين بحسن الضيافة ووافر الإكرام، فطابت له الإقامة في جونبور لما لقيه من عناية خاصة من السلطان إبراهيم شاه الشرقي، فضلاً عما أحيط به من تقدير العلماء ورجال الدولة. وقد بلغ من مكانته أن تولى منصب قاضي القضاة في الديار الشرقية، وكان السلطان يُجّله في مجلسه أيّما إجلال، حتى إنه خصّه بكرسيّ مصنوع من فضة يجلسه عليه في حضرته، تعبيراً عن عظيم منزلته ورفيع قدره.⁴

3.2. أساتذته:

ذكر أصحاب التراجم الذين ترجموا لشهاب الدين الدولة آبادي إثنين من أساتذته الذين أخذ عنهم العلم وتلمذ على يديهم، وهما عبد المقتدر الكندي الدهلوي وخواجي الدهلوي ولم يذكروا غيرهم.

1.3.2. القاضي عبد المقتدر الدهلوي:

القاضي عبد المقتدر بن القاضي ركن الدين الشريحي الكندي الدهلوي،⁵ كان عالماً مقتدرًا على العلوم الكثيرة بايع الشيخ نصير الدين الدهلوي وأخذ عنه الطريقة وأقام دولة العلم والتدريس وكان طريقة شيخه وأكثر خلفائه

¹ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 233/3.

² القنّوجي، أبعاد العلوم، 694-695.

³ القنّوجي، أبعاد العلوم، 694-695.

⁴ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 233/3.

⁵ الزركلي، الأعلام، 4/156؛ البلكرامي، سبحة المرجان في آثار هندستان، 77-78.

المحافظة على سنن الشريعة والاشتغال بدرس العلوم الدينية وكان يقول: الفكر في مسألة واحدة من الشريعة أفضل من ألف ركعة مشوبة بالعجب والرياء.¹

وُلد في تهانسير، ونشأ في دهلي، حيث تلقى علوم العربية وبرع في الأدب والإنشاء. تتلمذ على الشيخ شمس الدين محمد بن يحيى الأودي، ودرس الكشاف للزمخشري وأصول البزدوي لفخر الإسلام البزدوي على الشيخ نصير الدين محمود بن يحيى الأودي، الذي شجّعه على التعمق في التحصيل. ثم لازم شيخه في طريقته، وأمضى أيامه مشتغلاً بالتدريس والإفادة.²

لقد تتلمذ القاضي شهاب الدين الدولت آبادي على يد شيخه القاضي عبد المقتدر الدهلوي في مدينة دهلي قبل أن يبلغ المراتب والمدارج العلمية العالية، فقد علمه شيخه ورباه وتعاهده بكمال الألفة والمحبة والخبرة حتى صار خبيراً، حذقاً، باهراً في جميع العلوم والفنون والرموز والأسرار الباطنة.³

توفي القاضي عبد المقتدر الدهلوي في سنة (791هـ/1389م)، وعمره ثمان وثمانون سنة ودفن قريباً من الحوض الشمسي الواقع في دهلي وله قصيدة لامية طويلة وهي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أولها:
يا سائق الظعن في الأسحار والأصل *** سلم على دار سلمى و ابك ثم سل⁴

ومنها:

محمد خير خلق الله قاطبة *** هو الذي جل عن مثل وعن مثل

له المزايا بلا نقص ولا شبه *** له العطايا بلا من ولا بدل⁵

ويقول في آخرها:

يا سيد المرسلين المكرمين أدم *** شفاعة لعبيد ضارع وجل⁶

¹ القنّوجي، أبجد العلوم، 694.

² الحُسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 171/2.

³ الدولت آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 21؛ مفتي غلام سرور لاهوري، خزينة الأصفياء (لاهور: المكتبة النبوية، 1990)، 244/2-245.

⁴ القنّوجي، أبجد العلوم، 694.

⁵ الحُسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 172/2.

⁶ الحُسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 173/2.

2.3.2. خواجكي الدهلوي:

يُعدّ من كبار علماء عصره، وهو خواجكي بن محمد الحنفي، أصله من دهلي، ثم استقرّ في كالبي حتى عُرف بنزِيلها ودُفن فيها. وُلد ونشأ بدهلي، وتلقّى العلوم على الشيخ معين الدين العمراني، فبرع في الفقه وأصوله وعلوم العربية، ثم تصدّر للتدريس والإفادة بدهلي زمنًا طويلًا. كما لازم الشيخ نصير الدين محمود بن يحيى الأودي مدّة ممتدّة، وأخذ عنه القاضي شهاب الدين الدولت آبادي، فقرأ عليه الكتب المقرّرة. وقد غادر دهلي بعد أن أخبره الشيخ محمد بن يوسف الحسيني الدهلوي برؤيا أن المغول سيجتاحون البلاد ويثرون الفتن، فتوجّه إلى كالبي وأقام بها. وتُوّفّي سنة (809هـ/1406م) بكالبي، وقبره مشهور داخل قلعتها¹.

4.2. تلامذته:

قضى شهاب الدين الدولت آبادي فترة من حياته يتلقى العلم على يد أساتذته في دلهي ثم رحل منها إلى مدينة جونبور في شرق الهند، وما أن استقر بها بدأ الناس يلتفون حوله وأقبل عليه طلاب العلم ولزاموه ليتهلوا من علمه، وقد برع على يده الكثير من الطلاب وبرزوا في الفقه والأصول واللغة وصاروا علماء لهم مصنفاتهم وشهرتهم، وتعلمد على يد شهاب الدين الدولت آبادي العديد من طلبة العلم الذين أصبح لهم فيما بعد شهرة واسعة في الهند نذكر هنا بعضاً منهم:

1.4.2. القاضي نصير الدين الجونبوري:

يُعدّ الشيخ نصير الدين الدهلوي، ثم الجونبوري، من العلماء المبرزين في النحو والعربية والفقه وأصوله. وُلد ونشأ في دار الملك دهلي، وتلقّى العلم على القاضي عبد المقتدر بن ركن الدين الشريحي الكندي، الذي أولاه عنايةً خاصةً وأحاطه برعاية علمية فائقة. وبعد فراغه من التحصيل تصدّر للتدريس والإفادة بدهلي زمنًا طويلًا، ثم انتقل إلى جونبور إبان الفتنة التيمورية، حيث تولى منصب القضاء واستقلّ به مدّة من الزمن، ثم أثار الاعتزال والانقطاع عن الناس، متفرّغًا للزهد والعبادة. وقد ذكر عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي في كتابه أخبار الأختيار أخبارًا تدلّ على شدّة زهده وتقشّفه. كما يُروى أن القاضي شهاب الدين الدولت آبادي لما صنّف كتاب الإرشاد في النحو عرضه عليه ملتئمًا تدريسه ليُعتمد في مناهج الدرس، فاستحسن الشيخ الكتاب وأفاد بأنه لا يحتاج إلى

¹ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 247/3؛ سرور لاهوري، خزينة الأصفياء، 263-262/2.

تدريسه، ولعلّ في ذلك رغبةً في تجنّب إثارة البحث والنزاع حوله. وتُوفّي في الثالث من صفر سنة (817هـ/1414م) بمدينة جوبنور، ودُفن عند باب حجرته بها.¹

2.4.2. عبد الملك الجونبوري:

الشيخ الفاضل العلامة عبد الملك العادل بن عماد الملك العمري الأدهمي الجونبوري من العلماء المشهورين في النحو وعلوم العربية. وُلد ونشأ في مدينة جوبنور، وأقبل على طلب العلم منذ حداثة سنّه، فصحب القاضي شهاب الدين الدولة آبادي ولازمه ملازمةً طويلة، حتى قرأ عليه «فاتحة الفراغ» ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، ثم تصدّر للتدريس والإفتاء، وألّف عددًا من المصنّفات، حتى عُدّ من كبار العلماء في عصره، وانتهت إليه رئاسة التدريس في مدرسة شيخه المذكور. وتلمذ عليه الشيخ الهداد الجونبوري، صاحب الشروح على الهداية والبزدوي. ومن آثاره العلمية حاشيةٌ على شرح كافية ابن الحاجب للشها، وتُوفّي في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (897هـ/1492م) بجوبنور، ودُفن في مقبرة آبائه بكنكهره.²

3.4.2. القاضي رضي الدين الردلوي:

يُعدّ الشيخ الفاضل القاضي رضي الدين بن نصير الدين بن نظام الدين الحنفي الردلوي، وهو سبط العلامة القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي الدولة آبادي. وُلد ونشأ في مدينة جوبنور، وتلقّى العلم على جدّه القاضي شهاب الدين، ولازمه مدّةً حتى نضجت ملكته العلمية، فبرع في الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلوم العربية، وفاق أقرانه في هذه الفنون، وقد ولّاه السلطان إبراهيم شاه الشرقي منصب القضاء بمدينة ردولي، فاستقرّ بها، وجمع بين الولاية القضائية والتدريس والإفادة، مؤدّيًا دورا علميا وقضائيا بارزًا في محيطه.³

4.4.2. الشيخ صفي بن النصير الردلوي:

يُعدّ الشيخ الفاضل العلامة صفي الدين بن نصير الدين بن نظام الدين الردلوي من أعلام العلماء في عصره، وينتهي نسبه إلى الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت. وكان جدّه نظام الدين قديم إلى دهلي فأقام بها زمنًا، ثم انتقل إلى جوبنور واستقرّ فيها. وصفيّ الدين هو سبط القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر الدولة آبادي من جهة الأم،

¹ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 284/3.

² الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 259/3.

³ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 250/3.

وقد عُدد من نوادر عصره علمًا وحكمةً. تلقى علومه على جدّه المذكور، كما أخذ الطريقة عن الشيخ أشرف بن إبراهيم السمناني، الذي أثنى عليه ثناءً بالغاً، وذكر تفرّده بغرائب الفنون وعجائب المعارف، كما ورد في كتاب اللطائف الأشرفية. خلّف صفيّ الدين عددًا من المصنّفات، من أبرزها كتاب دستور المبتدئ في علم الصرف، ألفه لولده إسماعيل، وله شرحٌ على كافية ابن الحاجب سمّاه غاية التحقيق. وقد ذكره كاتب جلبي في كتابه كشف الظنون، وبين أنه شرحٌ ممزوج، مطلعته: «الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمه العظام...»، كما أشار إلى مكانته العلمية، ونوّه بما امتازت به حواشي أستاذه القاضي شهاب الدين من تحقيقٍ ودقّة. وتُوّفي في الثالث عشر من ذي القعدة سنة (819هـ/1416م).¹

5.4.2. فخر الدين الجونبوري:

يُعَدّ الشيخ الفاضل العلامة فخر الدين بن نصير الدين بن نظام الدين الحنفي الجونبوري من العلماء البارزين في بيئته العلمية، وهو سبط قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي الدولة آبادي. وُلد ونشأ في مدينة جونبور، وتلقّى العلم على جدّه القاضي الشهاب، ولأزمه مدّةً طويلةً، حتى نضجت ملكته العلمية، فبرع في الفقه وأصوله، وعلم الكلام، وعلوم العربية، متقدّمًا في هذه الفنون بين أقرانه.²

6.4.2. علاء الدين الجونبوري:

اسمه عطاء الملك بن عماد الملك العمري الجونبوري أفتى ودرس ولم يتجاوز سنه العشرين عاماً وصنف التصانيف وأصبح من أكابر العلماء وقد وضع حاشية على شرح الكافية للدولة آبادي توفي سنة (801هـ/1398م) بدولة آباد، ودفن بها.³

7.4.2. الشيخ محمد بن عيسى الجونبوري:

كان من نسل محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ألف له القاضي شهاب الدين شرحاً على أصول البزدوي، درس وأفاد الناس منه زمناً طويلاً ثم ترك الاشتغال بالعلم وتفرغ للعبادة، توفي سنة (870هـ/1465م).⁴

¹ الخُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 256/3.

² الخُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 264/3.

³ محمد خليل عبد العزيز شرف، اختيارات شهاب الدين الدولة آبادي في شرح الكافية، اطروحة دكتوراه (القاهرة: جامعة الأزهر، 2010)، 31: الدولة آبادي، تحقيق ودراسة شرح كافية ابن الحاجب، 17.

⁴ الدولة آبادي، تحقيق ودراسة شرح كافية ابن الحاجب، 17.

5.2. وفاته:

كانت وفاة القاضي شهاب الدين رحمه الله تعالى في 25 رجب سنة (849هـ/1445م) وقيل (848هـ/1444م).¹ ودفن بمدينة جونبور في الجانب الجنوبي من مسجد السلطان إبراهيم شاه الشرقي.²

6.2. مكانته وشخصيته الأدبية والعلمية:

كان القاضي شهاب الدين الدولت آبادي رحمه الله أديباً شهيراً، وشاعراً كبيراً، وتلميذاً مبدعاً لشاعر عظيم وهو القاضي عبد المقتدر الدهلوي (ت. 791هـ/1389م)، والقاضي المقتدر الدهلوي رحمه الله كان شاعراً بديعاً، كما يقول عبد الحق الدهلوي في وصف ملك العلماء: "كان ملك العلماء مدرّباً خبيراً في الشعر والنظم".³

وقد اجمعت كتب التراجم على أن القاضي الشهاب كان لغوياً، أديباً، بليغاً، وحيد العصر وفريد الدهر، وكما قيل عنه: "كل كتاب وتصنيف صنّفه ملك العلماء، هو في عبارة جيدة وظهر في صورة جميلة، وكانت لملك العلماء أيضاً خبرة تامة في الشعر والنظم".⁴

والحاصل أن ملك العلماء القاضي شهاب الدين الدولت آبادي كان مدرّباً خبيراً في العديد من الفنون، وصنف شرحاً لقصيدة بانث سعاد، وهي تجمع فنون كثيرة من العروض والمعاني والبيان والبديع، وقد شرح القاضي شهاب الدين منهجه، فقال: "فأردت أن أكتب كتاباً أشرح فيه لفظاً بعد لفظ بل حرفاً بعد حرف وأبتدأ فيها باللغة ثم بالصرف ثم بالنحو علم الإعراب ثم أمعن النظر في علم المعاني من كل باب، ثم بين ما يتعلق بعلم البيان ومن التشبيه والمجاز والكناية بالإتقان ثم أكشف عن وجوه الوجوه المحسنة وحجب الغموض، ثم تعرض بضروب العروض".⁵

¹ الزركلي، الأعلام، 187/1؛ وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إباد بن عبد اللطيف القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، بشير بن جواد القيسي، عماد بن محمد البغدادي، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، (بريطانيا: مجلة الحكمة، 2003)، 248/1.

² الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 233/3؛ القنّوجي، أبجد العلوم، 695؛ شهاب الدين أحمد بن عمر الدولت آبادي، المعافية في شرح الكافية، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى (إسطنبول: المكتبة الحنيفة، 2019)، 29؛ غلام علي آزاد بلكرامي، مآثر الكرام (لاهور: مكتبة إحياء العلوم الشرقية، 1921)، 173.

³ سرور لاهوري، خزينة الأصفياء، 244-245؛ عبدالحق محدّث الدهلوي، أخبار الأخيار في أسرار الأبرار، (طهران: جمعية طهران للأثار والتراث الثقافي، 2004)، 302.

⁴ الدولت آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 30.

⁵ شهاب الدين الدولت آبادي، شرح قصيدة بانث سعاد (مصدق الفضل)، (حيدر آباد، دائرة المعارف النظامية، 1906)، 7.

والقاضي شهاب الدين كان مدافعاً عن الشعر والشعراء فقال: "وليت شعري أية فضيلة أجل من الشعر وأي سحر أجود من هذا السحر، فالشعر ليس في ذاته مذموماً ولا ملوماً".¹

كان شهاب الدين الدولة آبادي حسن الأخلاق شديد التواضع متسامحاً مع الناس مما أكسبه حب الجميع، فالتف الناس حوله وأقبل عليه طلاب العلم من كل مكان، وأنزله رجال السياسة والحكم في الدولة منزلة كريمة، وأحبه السلطان إبراهيم الشرقي، وأسكنه قصر السلطنة، وكان يسمى دار الجواز جونبور، وهو دار الخلافة للسلطين الشرقيين، وكان شهاب الدين سهل المعاملة يجادل بالتي هي أحسن وينصح بلا تهجم على أحد ولا تشدد لرأيه، لا يرى شيئاً أو أمراً يخالف التعاليم الإسلامية إلا وأنكره بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة محتسباً أجره عند الله.²

لقد انتفع بشهاب الدين الدولة آبادي أناسٌ كثر وله مصنفات كثيرة وشهد العلماء على علمه وفضله ومنزلته وتقواه، فهو من أجلاء عصره علماً وعملاً وإفاضة وإفادة، وهو أحد أفراد الدنيا بفضله وأدبه وعلمه وذكائه، وفهمه وسرعة حفظه، واشتغل بالتدريس والإفادة، فدرّس وأفاد حتى صار في الهند العَلَمَ المفرد، وتخرج على يده الفضلاء، وقصده الطلبة من مختلف الأصقاع، وتهافتوا عليه تهافت الظمان على الماء، وكانت مواعظه مقصورة على حقائق التفسير في كل مجلس، ومن سجاياه الفاضلة الجميلة التي لا يدانيه فيها عامة أهل زمانه، قوته الروحانية، وبراعته في تحسين العبارة وتحبيرها، والتأنق فيها وتحريرها حتى عدّه أقرانه مُقَدِّماً من بينهم، فهو السبّاق في ميدانه، وكانت له خبرة تامة في التحرير والتقرير في علوم الأوائل، وبالتحديد في علم النحو، وقلماً يجتمع من العلم لأحد مثله، ونجد في مصنفاته المتون الجيدة الرصينة والمهذبة في نفائس الفنون، وقد كان أسلوبه بالإيجاز، فهو يجمع مسائل كثيرة في كلمات يسيرة، وذلك دليل واضح على تعمقه في العلوم والفنون، وقد اعترف بفضله علماء الآفاق،³ كما ذكر أستاذه القاضي عبد المقتدر بن ركن الدين وقال في حقه: "قد أتاني رجل جلده علم ولحمه علم وعظمه علم".⁴

وقال عنه صاحب كتاب نزهة الخواطر عبد الحي الحُسني: "وكان غاية في الذكاء وسيلان الذهن وسرعة الإدراك وقوة الحفظ وشدة الاهتمام في المطالعة والنظر في الكتب لا تكاد نفسه تشبع من العلم ولا تروى من المطالعة ولا

¹ الدولة آبادي، شرح قصيدة بانث سعاد، 4.

² الدولة آبادي، تحقيق ودراسة شرح كافية ابن الحاجب، 14.

³ الدولة آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 24.

⁴ القنّوجي، أبجد العلوم، 694-695.

تمل من الاشتغال ولا تكل من البحث“، ويظهر من هذه الأقوال أن القاضي شهاب الدين كان مزيناً بالعلوم الظاهرية والباطنية منذ بداية أمره وأيام تحصيل علومه ومعارفه.¹

وإلى جانب ما تمتع به الشيخ شهاب الدين الدولة أبادي من صفاء الذهن وجودة القريحة وقوة الفكر وسلامة الذهن، فإنه قد بلغ مرتبة الاجتهاد في الفقه والأصول وتدل مصنفاته الكثيرة على سعة نظره، وغزارة علمه، ويضرب به المثل في الذكاء والفتنة، وكان جيد القريحة، سليم الذهن، كريم النفس زاهداً.²

بلغ القاضي شهاب الدين في تحقيق الفروع إلى حد تعجز عنه العبارة، وقد أخذ عنه علماء عصره واعتُمدت ترجيحاته، وفتاواه وصار عديم النظير في الحفظ والإصابة وجودة النظر حافظاً نقيماً تقيماً محدثاً، وكان أيضاً ترجمان الشريعة متبحراً في العلوم والمعارف. ولا ريب في هذه الحقيقة لا سيما أنه الفاضل المحقق، الحافظ المدقق، سيبويه عصره، وخليط العلوم في أوانه، كثير التحري في الدين وكلامه مشتمل على العبارات الفصيحة البديعة، مليح العبارة، فصيح اللفظ، بليغ النظم والنثر والسجع الفائق وهو طويل النفس ممتع الحديث، كثير المحفوظات العربية وله ملكة جيدة في المباحث الدقيقة حتى أنه عندما ذهب إلى السلطان إبراهيم شاه الشرقي تلقاه السلطان بالتعظيم والتوقير،³ وذكر أنه مرض مرة وطال مرضه فزاره السلطان إبراهيم شاه، وبعد أن سأل عن أحواله طلب كأساً من الماء فأخذه وأخذ يدور به حول رأس القاضي سبع مرات وشرب من هذا الكأس وقال داعياً الله: اللهم إن قدرت له موتاً فاصرفه عنه إليّ، واشف ملك العلماء شفاءً كاملاً.⁴

كان شهاب الدين الدولة أبادي ذا حافظة قوية، يقرأ عبارات الكتب صفحة صفحة، وورقة ورقة، وقد انفرد بالفوائد والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة، والتحري البالغ والاطلاع المفرط والاقتدار على التصرف في الكلام.⁵

ولما رحل إلى ديار جونيور عَظُم شأنه هناك وذاعت شهرته الباهرة ومحاسنه الزاهرة، وهو من كبار علماء الفقه والنحو، فأظهر من القدرة ما يشهد له طول الصبر في أساليب الإنشاء بين أدباء زمانه، فلما اطلعوا عليه، افتخروا

¹ الخُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233.

² الدولة أبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 23-24.

³ الدولة أبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 24؛ سرور لاهوري، خزينة الأصفياء، 2/284.

⁴ رحمان علي، تحفة الفضلاء في تراجم الكملاء (تذكرة علماء الهند)، (قم: مجمع ذخائر الإسلام، 1972)، 115.

⁵ الدولة أبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 24؛ سرور لاهوري، خزينة الأصفياء، 2/284.

به وشهدوا بفضلله وسعة علمه، وكتبوا عليه تقاريرهم نظماً ونثراً، وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، وكان له اليد الطولى في كل فن، واجتهد في تحصيل العلوم وحفظها وله تصانيف مفيدة ممتعة.¹

لقد كان القاضي شهاب الدين الدولة آبادي منهمكاً في العلوم انهماكاً كلياً ففاق أقرانه بالإفتاء والتدريس والتحقيق، وكان له ملكة قوية، وحسن التعريب مع العذوبة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، ومالت إليه الأذهان وكان مفرط الذكاء، سريع الفهم قوي الإدراك، ولو أننا بحثنا عن تحقيقه وفحصنا عن تدقيقه، وكشفنا عن أسبابه فسوف نجده إماماً صادقاً حاز الفضل والكمال، وانتهت إليه العلوم النبوية، وتفجرت منه علوم البلاغة، فكان عالماً كبيراً، وله الأنظار الثاقبة والجوابات النفيسة الصائبة، وكان أستاذ عصره في التفسير. كان القاضي شهاب الدين ورعاً تقياً جامعاً بين أنواع الطاعات والرغبة في عمل الخير والتقاط الفرائد.²

7.2. مؤلفاته وآثاره:

لقد كانت مدينة جونبور غنية بالعلماء والفضلاء المحققين المدققين، وقد حصل لشهاب الدين الدولة آبادي منزلة عالية وقيمة كبيرة من كل ناحية، وفي كل فن، مع صفاء الذهن وقوة الفكر وقد بلغ إلى رتبة الاجتهاد في الفقه والأصول والنحو، فصنف مصنفات جيدة لطيفة تدل على سعة نظره وجزارة علمه، وقد اعترف المؤرخ محمد قاسم استرآبادي صاحب تاريخ فرشته الذي يعد أقدم مؤرخ في الهند اعترف بعظمة القاضي شهاب الدين، فقال: "إن تصانيف ملك العلماء شهاب الدين الدولة آبادي مستحسنة مفيدة كلها، ولها شهرة كاملة تامة".³

إن هذه الكتب المصنفة والمؤلفة، كان لها قبول تام كامل عند العلماء، فقد اعترفوا بفضلله ومن ذلك ما ذكره عمر رضا كحالة في كتابه معجم المؤلفين، حين ذكر شهاب الدين الدولة آبادي فقال: "أحمد بن شمس الدين بن عمر الزاولي، الدولة آبادي الهندي الحنفي شهاب الدين، عالم مشارك في بعض العلوم ومفسر ونحوي وعارف بالبلاغة".⁴

¹ الدولة آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 25؛ سرور لاهوري، خزينة الأصفياء، 284/2-285.

² الدولة آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 25.

³ الدولة آبادي، المعافية شرح كافية ابن الحاجب، 28.

⁴ كحالة، معجم المؤلفين، 309/4-245/1.

وقال الشيخ غلام علي آزاد الحسيني في كتابه سبحة المرجان في آثار هندستان عن مصنفات ومؤلفات شهاب الدين الدولت آبادي أنه "ألف كتباً سارت بها ركبان العرب والعجم وأزكى سراجاً وأهدى من النار الموقدة على العلم"¹.

وكان يميل في مؤلفاته إلى الإيجاز ولا شك أن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، ونجد هذه المقومات في جميع تصانيف شهاب الدين الدولت آبادي، ومن أشهر مؤلفاته التي ذاع صيتها وفاح أريجها:

1- الإرشاد في النحو (مخطوط وهو قيد التحقيق) وهو متن متين في النحو تعمق في تهذيبه كل التعمق وتأنق في ترتيبه حق التأنق.

2- المعافية في شرح الكافية لابن الحَاجِب في النَّحْو.

3- بديع الميزان/بديع البيان في البلاغة وَالْبَيَان (مخطوط).

4- شرح أصول البزدوي في أصول الفقه قام شهاب الدين الدولت آبادي بشرحه إلى مبحث الأمر، وقد صنّفه لتلميذه الشيخ محمد بن عيسى الجونبوري.²

5- البَحْرُ المَواجِج والسراج الوهَّاج في تفسير القرآن الكريم للقاضي شهاب الدين الدولت آبادي وهو مؤلف بعدة مجلدات باللغة الفارسية؛ فقد اعتنى فيه لبيان التراكيب النحوية ووجوه الفصل والوصل وغير ذلك أشد اعتناء،³ وقام بترجمته من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية الشيخ منور بن عبد المجيد اللاهوري.⁴

6- شرح قصيدة بانّت سعاد.

7- شرح قصيدة البردة للبوصيري.

8- رسالة في العقيدة الإسلامية.

9- رسالة في تقسيم العلوم بالفارسية.

¹ البلكرامي، سبحة المرجان في آثار هندستان، 89.

² شرف، اختيارات شهاب الدين الدولت آبادي في شرح الكافية، 33.

³ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 233/3؛ الحُسنِي، الثقافة الإسلامية في الهند، 164.

⁴ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 652/5؛ الحُسنِي، الثقافة الإسلامية في الهند، 165.

10- مناقب السادات بالفارسية.

11-هداية السعداء بالفارسية.¹

خاتمة:

تم استعراض مسار علم النحو في الهند، ومن خلال النموذج المتألق للقاضي شهاب الدين الدولة آبادي، تتجلى لنا حقيقة عميقة الأبعاد: وهي أن اللغة العربية لم تكن أبداً حكراً على أرض أو عرق، بل كانت ولا تزال وعاءً حضارياً وإنسانياً مفتوحاً لكل من آمن برسالتها وتعلق بجمالها. لقد تحولت الهند برغم بعدها الجغرافي إلى قلعة حصينة من قلاع الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وليس ذلك إلا دليلاً على قوة التفاعل بين الإسلام والثقافات المحلية، حيث تم استيعاب العلوم الإسلامية وتقديمها بإضافة نوعية تعكس العمق والفهم.

لقد مثل العلماء الهنود، وعلى رأسهم الدولة آبادي، حلقة وصل حيوية في سلسلة نقل التراث النحوي. فهم لم يكونوا مجرد ناقلين سلبيين، بل كانوا مجدّدين في الإطار التعليمي. فمتن "الإرشاد" للدولة آبادي، باختصاره وإحكامه، يظهر فهماً دقيقاً لحاجات طالب العلم في بيئته، حيث قدم جوهر القواعد النحوية في قالب سهل التناول، بعيداً عن الإطناب والتعقيد الذي قد يعترض المبتدئ. كما أن شرحه "المعافية" يُظهر نزعة تحليلية نقدية، فهو لم يقتصر على شرح النص، بل أدلى باجتهاداته واستدراكااته، مما يخرج من دائرة الشرح السلبي إلى دائرة التأليف المشارك.

ويبرز الدور الحضاري لعلم النحو في الهند من خلال ارتباطه العضوي بالعلوم الأخرى. فلم تكن قواعد النحو تدرس بمعزل عن الواقع، بل كانت أداة عملية لتفسير القرآن الكريم، كما يظهر في تفسير "البحر الموج" للدولة آبادي نفسه، وفهم نصوص الحديث النبوي، وضبط اللغة في الكتابات الأدبية والعلمية. وهذا يجعل من جهود أولئك العلماء جهداً متكاملًا يخدم الحفاظ على الهوية الدينية والفكرية للمسلمين في الهند.

ختاماً، إن دراسة إسهامات العلماء الهنود مثل شهاب الدين الدولة آبادي ليست استعادة للتاريخ فحسب، بل هي دعوة لإعادة النظر في مفهوم المركز والأطراف في التراث العلمي العربي الإسلامي. فهذه الإسهامات تذكرنا بأن الإبداع العلمي كان نتيجة لشبكة مترابطة امتدت من الأندلس إلى بلاد ما وراء النهر، وشملت حواضر مثل جونيور

¹ البلكرامي، سبحة المرجان في آثار هندستان، 89-90؛ القنّوجي، أجد العلوم، 695؛ الحُسنِي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 3/233؛ كحالة، معجم المؤلفين، 4/309؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/127.

ودلهي في الهند. كما تقدم نموذجاً للتفاعل الحضاري الإيجابي، حيث تم استقبال العلم العربي، وتمت تنميته بوعي عميق، ثم تم إعادة إنتاجه بشكل يخدم الأجيال الجديدة.

لقد نجح علماء النحو في الهند، ومنهم هذا النجم الساطع شهاب الدين الدولت آبادي، في تحويل علم النحو من "علم العرب" إلى "علم الأمة"، مؤكدين أن صيانة اللغة هي في الحقيقة صيانة للفكر والهوية، وأن الاجتهاد في تطوير أدواتها هو شكل من أشكال التجديد الحقيقي الذي يضمن لها الحيوية والاستمرار عبر العصور والأمصار.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، (د.ت).
- ابن منظور الأنصاري، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ط1، 1993.
- أحمد، محمود. "دراسة مخطوط: شرح مراح الأرواح للمهدي الحنفي". مجلة القسم العربي 25/2018).
- إدريس، أحمد. الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998.
- الأزهري، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي. شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000.
- الأفغاني، سعيد بن محمد بن أحمد. من تاريخ النحو العربي. دمشق: دار الفكر، 1978.
- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري كمال الدين. نزهة الألباء في طبقات الأدباء. تحقيق: إبراهيم السامرائي. الأردن: مكتبة المنار، ط3، 1985.
- البغدادي، إسماعيل باشا. هدية العارفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1951.
- البلكرامي، غلام علي آزاد الحسيني الواسطي. سبحة المرجان في آثار هندستان. تحقيق: محمد سعيد الطريحي. بيروت: دار الرافدين، ط1، 2015.
- بلكرامي، غلام علي آزاد. مآثر الكرام. لاهور: مكتبة إحياء العلوم الشرقية، 1921.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق: حمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة مدني، ط3، 1992.

- الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله. المستدرک علی الصحیحین. تحقیق: عادل مرشد. بیروت: دار الرسالة العالمية، 2018.
- الحُسَني، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر). بیروت: دار ابن حزم، 1999.
- الحُسَني، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي. الثقافة الإسلامية في الهند. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، 1958.
- الدهلوي، عبدالحق محدّث. أخبار الأخيار في أسرار الأبرار. طهران: جمعية طهران للأثار والتراث الثقافي، 2004.
- الدولت آبادي، شهاب الدين أحمد بن عمر. المعافية في شرح الكافية. تحقیق: مصطفى شيخ مصطفى. إسطنبول: المكتبة الحنيفية، 2019.
- الدولت آبادي، شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي. المعافية شرح كافية ابن الحاجب. تحقیق: هدى صلاح رشيد. الأردن: ألفا للوثائق، ط1، 2021.
- الدولت آبادي، شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي. تحقیق ودراسة شرح كافية ابن الحاجب. أطروحة دكتوراه، تحقیق: عوض شحاته. القاهرة: جامعة الأزهر- كلية اللغة العربية، 1989.
- الدولت آبادي، شهاب الدين أحمد بن عمر الزاوي. شرح قصيدة بانث سعاد (مصدق الفضل). حيدر آباد: دائرة المعارف النظامية، 1906.
- الزبيري، وليد بن أحمد الحسين، وإياد بن عبد اللطيف القيسي، ومصطفى بن قحطان الحبيب، وبشير بن جواد القيسي، وعماد بن محمد البغدادي. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة. بريطانيا: مجلة الحكمة، 2003.
- الزركلي، خير الدين بن محمود. الأعلام. بیروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002.
- سرور لاهوري، مفتي غلام. خزينة الأصفياء. لاهور: المكتبة النبوية، 1990.
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي. مفتاح العلوم. تحقیق: نعيم زرزور. بیروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1987.
- شرف، محمد خليل عبد العزيز. اختيارات شهاب الدين الدولت آبادي في شرح الكافية. أطروحة دكتوراه. القاهرة: جامعة الأزهر، 2010.

- الصحاري، سلمة بن مسلم العوتبي. الإبانة في اللغة العربية. تحقيق: مجموعة محققين. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 1999.
- ضيف، أحمد شوقي عبد السلام. المدارس النحوية. القاهرة: دار المعارف، ط7، 1968.
- الطائي، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك. شرح الكافية الشافية. تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي. مكة: جامعة أم القرى-كلية الشريعة، 1982.
- عبد الحق الإشبيلي، أبو محمد بن عبد الرحمن. الجمع بين الصحيحين. الرياض: دار المحقق للنشر والتوزيع، 1999.
- العزيزي، عبد الحق بن عطية الأندلسي. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2001.
- علي، رحمان. تحفة الفضلاء في تراجم الكملاء (تذكرة علماء الهند). قم: مجمع ذخائر الإسلامي، 1972.
- القسطنطيني (كاتب جلي)، مصطفى عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1941.
- القنّوجي، محمد صديق خان. أبجد العلوم. بيروت: دار ابن حزم، 2002.
- كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين. بيروت: مكتبة المثنى- دار إحياء التراث العربي، 2010.
- الكُمْلَائي، محمد حفظ الرحمن بن محب الرحمن. البدور المضية في تراجم الحنفية. القاهرة: دار صالح، 2018.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الفكر العربي، ط3، 1997.
- المصري القرشي، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم. تفسير القرآن من الجامع. تحقيق: ميكلوش موراني. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003.
- المليباري. "مساهمة مليبار في النحو العربي". نداء الهند. https://www.nidaulhind.com/2016/03/blog-post_26.html. تاريخ الاطلاع: 12 آب/أغسطس 2025.
- النجار، محمد عبد العزيز. ضياء السالك إلى أوضح المسالك. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1999.
- نعسان، محمود. "النحو العربي وتطوره في شبه القارة الهندية". مجلة الإلهيات جامعة دجلة 2/26 (2023).
- وافي، علي عبد الواحد. علم اللغة. مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ط9، 2004.

مفهوم الجيل في دراسات الهجرة: مراجعة نقدية

The Concept of Generation in Migration Studies: A Critical Review

د. يوسف حاسين (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب)

Dr. Youssef Hassine (Mohammed I University, Oujda, Morocco)

Abstract:

The concept of “generation” is widely used in migration studies; despite the many theoretical and methodological problems it raises, it has rarely undergone systematic scholarly scrutiny. This paper seeks to expose the methodological and theoretical issues associated with the generation concept in migration research and argues that the categories scholars refer to as the second and third generations of migrants generate considerable ambiguity and vagueness at both descriptive and analytical levels. Such shortcomings call for a rigorous critical to avoid conceptual diffusion and imprecision in the specification and use of the generation concept, and to pave the way for seeking better alternatives that overcome the problems produced by its current application. The paper begins by outlining the meaning of the generation concept and its theoretical roots in the social sciences, then proceeds to review its usages in migration studies and to highlight the theoretical and methodological deficiencies they entail.

Keywords: Generation concept, migration studies, second generation, third generation.

مستخلص:

يُستخدم مفهوم الجيل على نطاق واسع في دراسات الهجرة، ومع أنه يثير العديد من الإشكالات على المستويين النظري والمنهجي، إلا أنه لم يخضع للمراجعة العلمية إلا في حالات نادرة، تسعى هذه الورقة إلى الكشف عن الإشكالات المنهجية والنظرية التي يطرحها مفهوم الجيل في دراسات الهجرة، وتجادل بأن ما يصفه الباحثون بالجيل الثاني والثالث من المهاجرين، يؤدي إلى تشكيل الكثير من اللبس والغموض على مستوى أداء الوظائف الوصفية والتحليلية للمفهوم، وذلك من منطلق أن المراجعة النقدية لاستخدامات مفهوم الجيل في العلوم الاجتماعية هي خطوة ضرورية لتجنب الغموض الذي يكتنف استخدام هذا المفهوم في دراسات الهجرة، كما تهدف إلى فتح المجال أمام البحث عن بدائل أفضل لتجاوز الإشكالات التي يطرحها الاستخدام الحالي للمفهوم. تنطلق الورقة من دلالة مفهوم الجيل وأصوله النظرية في العلوم الاجتماعية، ثم تنتقل إلى مراجعة استعمالاته في دراسات الهجرة وإبراز أوجه قصوره النظرية والمنهجية.

الكلمات المفتاحية: مفهوم الجيل، دراسات الهجرة، الجيل الثاني، الجيل الثالث.

مقدمة:

يؤدي المفهوم وظائف إبستمولوجية جوهرية في بناء المعرفة العلمية، فهو يمكّن الباحث من وصف الظواهر وتحليلها وتفسيرها عبر تحديد مكوناتها وعلاقاتها الداخلية، كما يساهم في بناء لغة مشتركة تسمح بالتواصل العلمي الفعال بين الباحثين. إذ يعدّ المفهوم محرّكاً رئيساً في تطوير النظريات الاجتماعية، وتحسين فهمنا لحقيقة الواقع الاجتماعي المعقّد. في المقابل يمكن أن يؤدي التباس المفهوم وغياب لغة مشتركة، دقيقة وصارمة، بين الباحثين، إلى غموض النظريات الاجتماعية واختلال المعرفة العلمية حول الظواهر الاجتماعية. كما يمكن للاستخدام العفوي للمصطلحات الرائجة، والمحدّدة من قبل الدولة والإعلام والحسّ المشترك، أن يؤدي إلى إعادة إنتاج الوصم الاجتماعي لبعض الفئات. وهو ما يحدث أحياناً في دراسات الهجرة، بوصفها من المجالات التي تعرف انتشار العديد من المفاهيم غير الدقيقة التي تحتاج إلى مراجعة نقدية، نظراً للإشكالات التي تطرحها على المستويين النظري والمنهجي.

يعدّ مفهوم الجيل واحداً من هذه المفاهيم، فهو يُستخدم، في الفترة الراهنة، على نطاق واسع في دراسات الهجرة، للتمييز بين فئات المهاجرين، تبعاً للجيل الذي ينتمون إليه؛ جيل أول أو ثاني أو ثالث... إلخ. حيث يُنظر إلى كل واحد من هذه الأجيال، بأن له تجارب فريدة تتشكل من خلال سياقات الهجرة التي يعيشها المهاجر. ويُعتبر التعرف على هذه الاختلافات الجيلية، في هذا السياق، أمراً ضرورياً لتحليل عمليات نقل الثقافة، وتشكيل الهوية، والاندماج في المجتمعات المستقبلية. إذ يواجه كل جيل تحديات وفرص مختلفة بناءً على بيئته الاجتماعية والسياسية، ما يجعل من المفهوم في نظر مستخدميه، إطاراً تحليلياً أساسياً لفهم التجارب والهويات المتنوعة للمهاجرين وأبنائهم وأحفادهم.

وقد تزايدت أهمية مفهوم الجيل في دراسات الهجرة، بشكل خاص في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، حيث بدأ الباحثون في استكشاف تعقيدات قضايا الهجرة، بعيداً عن التصورات التقليدية حول الظاهرة. فعلى سبيل المثال، أصبح الجيل الثاني موضوعاً مثيراً للجدل، وهو ما أفرز العديد من المناقشات حول تعريفاته وآثاره، وذلك بوصفه تجسيدا للتوترات بين القيم الثقافية الموروثة وضغوط الاندماج، مما يكشف عن الديناميات التي يمكن أن تؤثر على الهوية والانتماء بين أحفاد المهاجرين.

ويجادل الباحثون بأن فهم هذه الديناميات أمر حيوي لصياغة سياسات هجرة، فعالة وناجعة. والأمر المثير بهذا الصدد، هو أن معظم الباحثين في مجال الهجرة، يسلّمون بجدوى ونجاعة استعمال هذا المفهوم لأغراض وصفية وتحليلية، فيوظفونه دون التفكير فيما إذا كان قادراً على القيام بوظائفه الاستمولوجية أم لا؟ وذلك باستثناء عدد قليل من الباحثين الذين انتبهوا إلى الإشكالات التي يطرحها استعمال مفهوم الجيل في دراسات الهجرة، فرفضه بعضهم واعتبره غير مناسب لتحليل وضعية أبناء وأحفاد المهاجرين؛ نذكر منهم على سبيل المثال: دراسة بوريللي ورودين Borrelli and Ruedin بعنوان " نحو استخدام دقيق لمصطلحات الهجرة في البحث الكمي: نقد واقتراحات"¹، ودراسة مارتا سكوكو Marta Scocco بعنوان "الجيل الثاني: تأمل نظري في مفهوم متغير باستمرار"².

¹ Borrelli L and Ruedin D. "Towards a precise and reflexive use of migration-related terminology in quantitative research: criticism and suggestions", Comparative Migration Studies, Vol. 12, no. 10 (2024) pp 1-18

² Marta Scocco, "Second generation: a theoretical reflection on an ever-changing concept", Ethnic and Racial Studie, vol. 48, no. 8 (2024), pp 1479–1498.

في هذا السياق، ستحاول هذه الدراسة الكشف عن الإشكالات التي يطرحها تداول مفهوم الجيل في دراسات الهجرة، وذلك بوصفه مفهوماً يفتقد إلى الدقة والوضوح بسبب غموض ولبس مفهوم الجيل نفسه، من جهة، وبسبب الاختلافات الكثيرة بين الباحثين حول المعايير المعتمدة في تصنيف أبناء وأحفاد المهاجرين إلى جيل ثاني أو ثالث، من جهة ثانية، الأمر الذي يهدّد وحدة المفهوم على مستوى البناء النظري في دراسات الهجرة. وذلك بالانطلاق أولاً، من دلالة مفهوم الجيل وأصوله النظرية في العلوم الاجتماعية، ثم الانتقال إلى مراجعة استعمالاته في دراسات الهجرة وإبراز أوجه القصور النظرية والمنهجية التي يطرحها. وذلك بالاعتماد على تحليل كيفية توظيف المفهوم في الدراسات الإمبريقية الحديثة حول أبناء وأحفاد المهاجرين.

1. مفهوم الجيل: الدلالات والأصول النظرية:

1.1. الدلالات:

يطرح مفهوم الجيل العديد من الإشكالات على مستوى الدلالات والمعاني التي يحملها في سياقه التداولي داخل العلوم الاجتماعية. وقد سبق للباحثان إريك بولاند وكارلوس لوبيز Eric Bolland and Carlos Lopes، أن نهباً إلى المشاكل التي تطرحها التعريفات القاموسية لهذا المفهوم. "فالتعريف الذي يقدمه، على سبيل المثال، قاموس ويبستر للجيل، بكونه "مجموعة من الأشخاص الذين يُعتقد أنهم ولدوا في نفس الوقت تقريباً" أو بشكل أكثر تحديداً، "فترة زمنية، حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين عاماً، التي تتوافق تقريباً مع عمر الوالدين عندما يولد أطفالهما"، يظل في نظر الباحثان تعريفاً غامضاً.

إذاً ما معني "حوالي نفس الوقت"؟ هل المقصود هو في نفس العام؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل هو عام تقويمي أم شيء آخر؟ إذا كان عاماً تقويمياً، فهل الشخص الذي ولد في 31 ديسمبر في العام الجاري من جيل ما ينتهي حقاً إلى جيل مختلف عن الشخص الذي ولد في الأول من يناير من العام التالي؟¹ نفس الأمر يمكن أن يقال على التعريف الذي تقدمه موسوعة جوردن مارشال للسوسولوجيا، بتحديد مفهوم الجيل بوصفه "صورة من صور جماعات العمر، يتكون من أفراد المجتمع الذين ولدوا في نفس الوقت تقريباً"².

¹ Eric Bolland, Carlos Lopes, Generations and Work, (Palgrave Macmillan, US, 2014), p 31.

² جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، الطبعة الأولى، (مصر: المشروع القومي للترجمة، 2000)، الجزء 1، ص 475.

يشير كوستنزا وزملاؤه، إلى أن علماء الاجتماع والعديد من أولئك الذين يدافعون عن تأثير الأجيال في أماكن العمل، يستخدمون مفهوم الأجيال بوصفه مجموعات من الأفراد، في نفس العمر تقريباً، والذين تأثروا بمجموعة مشتركة من الأحداث المهمة (على سبيل المثال: الحروب، الكساد الاقتصادي...إلخ). هذه الأحداث التي تشكل هؤلاء الأفراد، وتحولهم إلى مجموعة مميزة يكون أعضاؤها أكثر تشابهاً مع بعضهم وأكثر تمايزاً عن المجموعات الأخرى، أو أولئك الذين لم يشهدوا هذه الأحداث. ويُفترض أن جميع الأفراد الذين هم جزء من مجموعة جيلية مميزة يحملون قيماً ومواقفاً متشابهة تشكلت بشكل فريد من خلال تجاربهم الجماعية مع هذه الأحداث¹. والملاحظ من خلال هذه الدلالة التي يضيفها بعض علماء الاجتماع على مفهوم الجيل، هو أنها تنتقل من التركيز على المحدد الزمني فقط، إلى إدخال متغيرات أخرى مرتبطة بالتعرض لنفس الأحداث التاريخية والاجتماعية المؤثرة على مسار تطور المجتمعات.

عطفاً على ما سبق، يمكن التمييز بين مقاربتين في تحديد مفهوم الأجيال: مقارنة تعتمد على المحدد الزمني في التمييز بين الأجيال، ومقارنة تستند إلى التحولات الاجتماعية والثقافية. المقارنة الأولى؛ تعتمد الإطار الزمني بوصفه محددًا لتقسيم أفراد المجتمع إلى أجيال، وذلك بوضع الحدود بين الأجيال بناءً على فترات زمنية ثابتة (عشرين أو ثلاثين عاماً على سبيل المثال). وهي مقارنة ذات أساس بيولوجي، حيث كان مفهوم الجيل في البداية، مرتبطاً بدورات التكاثر البيولوجي، أين يتم التركيز على سلسلة من مجموعات الولادة؛ ومتوسط الفترة التي يولد خلالها النسل ويتطور وينضج، ثم ينجب ذرية خاصة به². وتمتد حلقات هذه السلسلة زمنياً من 20 إلى 30 سنة مع الاختلافات التي يمكن تطراً على هذا الفترات بالزيادة أو النقصان، تبعا للمجتمعات والفترات التاريخية.

أما المقارنة الثانية؛ فهي تركز على السياق التاريخي والتجارب المشتركة التي تُشكل هوية الجيل، بدلاً من الاعتماد فقط على معايير زمنية جامدة. حيث تعتبر هذه المقارنة أن الأحداث والتحولات الاجتماعية والثقافية، مثل الحروب والثورات والأزمات الاقتصادية والتغيرات التكنولوجية وغيرها، تؤثر على الأفراد بشكل جماعي، وتُعتبر هذه التحولات عوامل محفزة لتشكيل قيم وسلوكيات مشتركة بين أفراد الجيل. وبالتالي لا تختزل الفروقات بين الأجيال في الأعمار فقط، بل ترجعها إلى التجارب والتحديات التي يمر بها أفراد الجيل خلال مراحل نموهم. وبذلك يصبح الزمن مجرد إطار يتم من خلاله تفسير التحولات الاجتماعية والثقافية. كما تؤكد هذه المقارنة أن

¹ David P. Costanza, Cort, Rudolph, Hannes Zacher, "Are generations a useful concept?", Acta Psychologica, vol 241, (2023), P 2.

² Ibidem.

الأجيال ليست ثابتة، بل تتأثر بالتغيرات المتلاحقة في السياقات الاجتماعية والثقافية، وهو ما يعني أن الحدود بين الأجيال أكثر تتداخلا ومرونة من الكيفية التي يتصورها أنصار المقاربة الأولى.

حاول بعض الباحثين تجاوز ثغرات المقاربتين بالجمع بينهما، مما أدى إلى ظهور العديد من التصنيفات الجيلية، من أشهرها، التقسيم الشهير للأجيال إلى: الجيل الصامت Generation Silent، ويشمل المواليد من 1928 إلى 1945 وهو جيل نشأ في فترات الحروب العالمية والكساد الاقتصادي. جيل الطفرة السكانية Baby-Boomers الذي ولد بعد الحرب العالمية الثانية وفي فترة الازدهار الاقتصادي، أي ما بين 1946 و1964. جيل X Generation X الذي نشأ في ظل التحولات الاقتصادية والتكنولوجية الكبيرة، ما بين 1965 و1980. جيل Y أو جيل الألفية Y Generation أو Millennials الذي ولد مع بداية الأنترنت والعولمة، ما بين 1981 و1996. جيل Z Generation Z وهو جيل نشأ مع الهواتف الذكية وشبكات التواصل الاجتماعي، ويشمل مواليد ما بين 1997 و2012. وأخيراً، جيل ألفا Alpha Generation، ويشمل مواليد ما بعد 2013، وهو جيل مرتبط بالتعلم الرقمي والذكاء الاصطناعي منذ الطفولة.

بالرغم من أن هذا التصنيف قد حاول تجاوز ثغرات المقاربات السالفة الذكر، من خلال جمعه بين المحدد الزمني والسياق التاريخي والاجتماعي، إلا أنه يعاني من اختلالات مهمة، فهو تقسيم تبلور في السياق الغربي، ولا ينطبق بالضرورة على باقي الثقافات والمجتمعات، نظراً لاختلاف السياقات التاريخية والاجتماعية. أضف إلى ذلك، أنه يعكس تعسفاً كبيراً حينما يضع سنوات معينة كحدود بين الأجيال، إذ بأي معنى يتم إدراج مواليد اليوم الأول أو في الدقيقة الأولى من سنة 1946 ضمن جيل الطفرة السكانية وليس ضمن الجيل الصامت.

2.1. الأصول النظرية:

أثناء محاولته إعادة النظر في المعرفة التاريخية المتداولة حول الجيل الذي عايش وشارك في الحربين العالميتين في القرن العشرين، يسلط روبرت وول Robert Wohl في كتابه "جيل 1914" الضوء على الكيفية التي بدأ بها التفكير في ظاهرة الأجيال، ويناقش العديد من الكتابات حول مسألة الجيل في خمسة بلدان أوروبية هي: فرنسا، ألمانيا، إنجلترا، إيطاليا، إسبانيا.

¹ Robert Wohl, The generation of 1914, (Cambridge: Harvard University Press, 2009).

يبدأ روبرت وول بفرنسا التي عرفت، في نظره، أوّل عمل مهمّ حول نظرية الأجيال في القرن العشرين والذي يعود لفرانسوا مينتري Francois Mentre، من خلال عمله "الأجيال الاجتماعية Les générations sociales"¹. لينتقل بعد ذلك إلى ألمانيا التي شهدت ارتفاعا كبيرا في التنظير حول مسألة الأجيال، بسبب الظروف المتغيرة التي ميّزت العقد ونصف العقد الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، ويستحضر إسهامات العديد من الباحثين الألمان في موضوع الأجيال، خاصة العمل الشهير لكارل مانهايم Karl Mannheim "مشكلة الأجيال The Problem of Generations"²، والذي يُعتبر من أبرز الأعمال السوسيولوجية حول مسألة الأجيال.

ليحاول بعد ذلك إعادة بناء المعرفة التاريخية ومراجعة أسطورة "الجيل الضائع" في بريطانيا، عبر تسليط الضوء على حياة بعض الأدباء والشعراء مثل روبرت بروك Rupert Brooke وسيغفريد ساسون Siegfried Sassoon وتجربتهم كمحاربين في الحرب العالمية الأولى، بغية استخلاص نظرتهم للحياة والظروف التي عاش فيها جيل 1914. ثم يمضي إلى تحليل محاولات الإسباني "خوسيه أورتيجا إي كاسيت" لصياغة نظرية أجيال شاملة في إطار فلسفته في الوجود الإنساني، وعلى خلفية الأزمة السياسية والثقافية الإسبانية والأوروبية بشكل عام. ثم يختم بإيطاليا، حيث يصف الكيفية التي توصلّ بها أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci إلى رؤيته حول ظاهرة الأجيال، ويحاول إظهار كيف يمكن استخدامها لتوفير التصحيح الضروري لمقاربة أورتيجا لمسألة الأجيال.

بمراجعته لأبرز الأعمال المنجزة حول "الجيل"، يوضّح روبرت وول المسار الذي مرّ منه التفكير في الموضوع. وستابع معه، فيما يلي، لحظتين أساسيتين من تطور البحث في قضية الأجيال: الأولى مع السوسيولوجي الفرنسي فرانسوا منتري والثانية مع السوسيولوجي الألماني كارل مانهايم.

تناول مينتري بصفته سوسيولوجي متأثر بألفريد إسبيناس وإميل دوركهايم، مشكلة الجيل بهدف فهم آلية الابتكار الثقافي والتغيّر الاجتماعي. وأشار إلى أنه لا يمكن ربط الأجيال الاجتماعية بتعاقب الآباء والأبناء والأحفاد في الأسرة، لأن أجيالا عائلية جديدة تولد كل يوم، وحركة السكان مستمرة دون انقطاع. ولا ينبغي تعريف الأجيال الاجتماعية في ضوء جميع الأشخاص الذين يتعايشون في المجتمع في أي وقت من الأوقات. وبالتالي فههدف وفائدة مفهوم الأجيال الاجتماعية، هو أنه يمكن تقسيم المعاصرين إلى فئات عمرية مختلفة. وتقسيم المجتمع إلى فئات

¹ Ibid, P 4.

² Karl Mannheim, "The Problem of Generations", In: Paul Kecskemeti (ed), Essays on the Sociology of Knowledge, (London: 1952), pp 276-320.

عمرية حدث نتيجة كون كتلة البالغين النشطين والمنتجين تتغير بشكل كامل ومنتظم كل ثلاثين عامًا. وقد أصرّ مينتري أن التاريخ يجب أن يدرس تطور المشاعر والمعتقدات الإنسانية. وبذلك رفض فكرة أن الأجيال الاجتماعية تحددها مسارات التطور السياسي، أو اختراقات العلوم، أو ابتكارات التكنولوجيا، أو التصورات الفلسفية، أو تاريخ النظم التعليمية. لقد كان الجيل الاجتماعي نتاج تحوّل روحي spiritual transformation، "عمل عقلي هادئ يقدم نموذجًا جديدًا للنشاط البشري".

حدث هذا التحوّل الروحي بانتظام في عقول وقلوب المراهقين والشباب. حيث تطوّرت الحياة الفكرية من خلال مبدأ المعارضة؛ وهذه المعارضة مستمدة في النهاية، من الصراع بين الآباء وأبنائهم. فمن خلال طاعة القانون الغامض الذي لا يرحم والذي يضع الأطفال ضد آبائهم، ثار أفراد الجيل الأصغر سنًا ضد تعليم الأكبر منهم، وصنعوا من تجربتهم نظامًا جديدًا للقيم، وتسلسلاً هرميًا جديدًا للغايات، ومعرضًا جديدًا للنماذج. وبالتالي لا يمكن تعريف الجيل إلا "من حيث المعتقدات والرغبات، من الناحية النفسية والأخلاقية". ولم يكن الجيل الاجتماعي وسيلة لتقسيم الزمن، بل "وحدة روحية". لقد كانت "طريقة جديدة للشعور بالحياة وفهمها"، و"بيئة روحية أصلية"، و"حالة ذهنية جماعية متجسدة في مجموعة بشرية تستمر لفترة معينة من الزمن"¹.

كان مينتري يقرّ أنه من المستحيل تحديد مدّة الجيل الاجتماعي بدقة مطلقة. واعترف أيضًا، بأنه كان من الصعب رسم حدود زمنية صارمة وسريعة بين جيل وآخر، وأن تصوّر ووصف التسلسل بين الأجيال يمثل مشكلة شائكة، من المرجح أن تؤدي إلى الخطأ والجدل. لكن على الرغم من هذه العوائق النظرية، كان مينتري مقتنعًا بفائدة فكرة الأجيال، لأنها تتوافق مع الفطرة السليمة وهي حقيقة واقعة لكل فرد. "عندما يشير الإنسان إلى جيله فإنه يستخدم تعبيراً واضحاً تماماً، وإن لم يكن تسلسلاً زمنياً. فهو يسوّي به من هم في مثل عمره تقريباً، زملاؤه الطلاب وأصدقائه، وأولئك الذين كانوا ينشؤون في نفس الوقت الذي كان فيه، ويتقاسمون معه مجالات النشاط والتأثير، فجميع أفراد الجيل مرتبطون ببعضهم من خلال مجتمعاتهم، ومعتقداتهم، ورغباتهم"².

يُعدّ تصور مينتري لمفهوم الجيل محاولة جديّة لتجاوز المقاربة التي تربط الأجيال بالتتابع البيولوجي، ويمنح بدلاً من ذلك الأولوية للتحوّلات التي تطرأ على التصورات والمشاعر الجماعية كآلية تأسيسية لانبثاق الجيل. وهو تصور يلفت الانتباه إلى البعد الذاتي والرمزي في تشكّل الانتماء الجيلي، حيث يُصاغ الجيل بوصفه "وحدة معنوية" لا

¹ Wohl, P 19.

² Ibid., P 22.

مجرد وحدة زمنية. بالرغم من إقرار مينتري بصعوبة تحديد حدود زمنية دقيقة للجيل، فإن مقارنته تُضفي على الجيل معنى يتجاوز التعريفات الكمية، ليغدو مجالاً لتشكّل المشاعر والمعتقدات الجماعية ضمن سيرورة الصراع والتجاوز بين الفئات العمرية. غير أن استبعاد العوامل البنيوية مثل الأحداث السياسية أو الابتكارات التقنية من عملية التكوّن الجيلي، يثير تساؤلات نظرية حول الكيفية التي تتقاطع بها التحولات النفسية مع السياقات التاريخية والاجتماعية الأوسع.

في مقاله "مشكلة الأجيال The Problem of Generations"، يبدأ مانهايم بمناقشة مختصرة للكتابات السابقة حول فكرة الأجيال، ويقسمها إلى تقليدين: المقاربة الوضعية والمقاربة الرومانسية التاريخية. تعود جذور التقليد الوضعي إلى دافيد هيوم وأوغست كونت من خلال جوستين دروميل وجوزيبي فيراري، وكان أحدث تجسيد له في مينتري. كل هؤلاء المفكرين عملوا برؤية مفادها أن الطبيعة البيولوجية للإنسان (الطول الثابت نسبياً لأي حياة بشرية واحدة، التدفق المستمر للولادات، وعملية الشيخوخة) يجب أن تحدّد، بطريقة ما، عملية التغيير الاجتماعي والثقافي. كان هدفهم المشترك هو اكتشاف قانون عام أو إيقاع تاريخي يعتمد على الإحصائيات الحيوية للحياة والموت. وكان هاجسهم هو تحديد طول الجيل كمياً وإيجاد النقطة التي يجب أن يبدأ منها العدّ من أجل تحديد تسلسل الأجيال. استلهم مفكروا المدرسة الوضعية في فرنسا، فكرة التقدم الأحادية الخط، وتصوروا الوقت من الناحية الكمية ورأوا سرّ التاريخ في الجداول الزمنية.

بالنسبة لهذا التقليد، لم تقطع الأجيال تدفق التاريخ؛ لقد أكّدوا استمراريتها ووضحو حركة المجتمع. وهكذا أصبح مفهوم الأجيال تفسيراً ودليلاً على التقدّم. أما التقليد التاريخي الرومانسي، فقد نشأ في ألمانيا وسعى أنصاره إلى الحصول على سلاح يستخدمونه ضد فكرة التقدّم، فوجدوه في مفهوم الأجيال، الذي يحتوي في تفسيرهم على رؤية جديدة ومختلفة جذرياً للزمن باعتباره داخلياً ومعيشاً ومتغيراً. ومن ثم تجربة لا يمكن قياسها كمياً.

ووفقاً لمانهايم، لم تكن المعاصرة contemporaneity بالنسبة إلى فيلهلم ديثلثي Dilthey Wilhelm، حقيقة كرونولوجية، بل هوية للمؤثرات، وزمن داخلي لا يمكن استيعابه من خلال الأرقام، بل من خلال بصيرة العقل الموجّه تاريخياً. بالنسبة لمانهايم، المحاولة الأسوأ في هذا التقليد الثاني، لم تكن تلك الخاصة بديثلثي، بل محاولة فيلهلم بيندر Pinder Wilhelm، الذي كانت محاولته لتطبيق مفهوم الجيل على تاريخ الفن حاضرة في ذهن مانهايم. كان بيندر مفتوناً بما أسماه "عدم معاصرة المعاصرين Non Contemporaneity of Contemporaries". وأشار إلى

أن الزمن الخاص بشخص ما ليس بالضرورة متطابقًا مع زمن شخص آخر، على الرغم من أنهم يعيشون في نفس الفترة¹.

يعتبر مانهايم أن السوسولوجي ينبغي أن يبدأ بالتساؤل عما يربط أفراد الجيل معًا، فهذه الطريقة سوف يلاحظ أنه، مع استثناءات قليلة مثل حركة الشباب الألمانية، لم يكن الجيل ذلك النوع من الرابطة الاجتماعية التي تؤدي إلى ظهور مجموعة محدّدة. لم يكن الجيل جماعةً، أي مجموعة تعتمد وحدتها على القرب الجسدي بين أعضائها، كما أنها لم تكن تكوينًا اجتماعيًا منظمًا لغرض محدد، ولم يكن مثل العائلة ولا مثل الحزب السياسي. إذن، أي نوع من التشكيل الاجتماعي كان الجيل؟ من المثير للدهشة إلى حد ما، أن مانهايم توصل إلى استنتاج مفاده أن الجيل يشبه الطبقة؛ لقد كانت حقيقة موضوعية، وموقعًا في المجتمع لا يعتمد على وعي أعضائه. كان هذا الموقع يعتمد على إيقاع بيولوجي في الوجود الإنساني، وعلى عوامل الحياة والموت في نهاية المطاف، وأمد الحياة المحدود، والشيخوخة. اعتبر مانهايم أن الوضعيين أخطأوا في إغفال هذا التمييز، وأن أي محاولة لبناء موقف من الموضوع اعتمادًا على العوامل البيولوجية ستؤدي حتماً إلى الارتباك والخطأ.

إن الدلالة السوسولوجية للأجيال حسب كارل مانهايم، لا يمكن فهمها من خلال التركيز على الوجود الكمي، ولا من خلال التجربة النوعية. لأن سوسولوجيا الأجيال في نظره، ليست مسألة أرقام، ولا دراسة استبطانية للحياة اليومية، بل إن ما يهمّ فيها، هو التفاعل بين "المشاركين الجدد في السيرورة الثقافية"، وكذا المجتمع الذي يولد فيه هؤلاء المشاركون ويتطورون ويغيرون عالمهم². كما وصف الكيفية التي يرى بها الأفراد، الذين ينتمون لنفس الجيل، العالم بطرق مختلفة أشدّ الاختلاف عن نظرائهم من الأجيال السابقة. ولذلك فإن الخبرات الفريدة التي تشترك فيها كل جماعة جيل تتيح الفرصة للتغير الاجتماعي³.

يشكّل تحليل مانهايم لمفهوم الأجيال نقلة نوعية في الفكر السوسولوجي، إذ يتجاوز الأطر التبسيطية التي تبناها التقليدان الوضعي والتاريخي، نحو فهم دينامي ومعقد لتشكل الأجيال بوصفها مواقع اجتماعية تتأسس على إيقاع الحياة والموت، لا على مجرد المعاصرة الزمنية أو الانتماء البيولوجي، وبرز تمييزه بين وجود الجيل بوصفه بنية موضوعية وبين الوعي الجيلي كأثر ثانوي للموقع الزمني، بوصفها مدخلا نظريا دقيقا يسمح بقراءة الفعل

¹ Wohl, P 74.

² Jennie Bristow, The Sociology of Generations, (London: Palgrave Macmillan, 2016), P 2.

³ مارشال، ص 475.

الاجتماعي من خلال ترابط التجربة والتاريخ والبنية. وتتضح أهمية هذا التصور في تأكيده على أن الانتماء إلى جيل واحد، بالرغم من أن تزامنه الزمني والمكاني، لا يفضي بالضرورة إلى تشكّل وعي جماعي مشترك. فالتفاوت في التأثير بالتحوّلات الاجتماعية، واختلاف مسارات التنشئة والتجربة الحياتية، يمنح الأجيال طابعاً تفاعلياً غير خطّي، ويبرز الحاجة إلى مقارنة تُراعي تداخل الموقع الجيلي مع المحددات الطبقية والثقافية في إنتاج المعنى والتغيير.

2. مفهوم الجيل في دراسات الهجرة:

يستخدم مفهوم الجيل في دراسات الهجرة للتمييز بين أجيال المهاجرين، غير أن جُلّ الباحثين في مجال الهجرة ينتقلون مباشرة إلى مناقشة مفهوم الجيل الأول أو الثاني أو الثالث من المهاجرين، ولا يتوقفون عند مساءلة مفهوم الجيل نفسه. وتكشف الدراسات الإمبريقية عن اختلافات كثيرة في التعاريف التي يقدمها الباحثون لهذا المفهوم. فعلى سبيل المثال تقدّم ميلينا كيميستي وآخرون بعض الأمثلة عن التغيرات التي تلحق استخدامات مفهوم "الجيل الثاني"، ليس فقط وفقاً للإطار القانوني السائد في كل بلد، بل أيضاً وفقاً لعملية جمع البيانات، خاصة تصميم المسح الكمي. إذ يعرف بورتيس وشافلر "الجيل الثاني" بأنه يشير إلى أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين 13 و15 عامًا، والذين وُلدوا في الولايات المتحدة من أحد الوالدين، على الأقل، المولودين في الخارج أو الذين ولدوا في الخارج لكنهم عاشوا في الولايات المتحدة لمدة 5 سنوات على الأقل. أما بالنسبة لكراولي، فيشير الجيل الثاني إلى أولئك الذين ولدوا في المملكة المتحدة مع ضرورة أن يكون أحد الوالدين، على الأقل، مولوداً في الخارج. في حين يعتبر كيرزباوم وآخرون أن الجيل الثاني هم المولودين في فرنسا، مع وجود أحد الوالدين مهاجراً على الأقل. بينما يعتبر كلاوس ونوك بأنهم المولودون في ألمانيا لأبوين مهاجرين¹.

أما زوو مين Zhou Min فيضع في مقال له بعنوان "الجيل الثاني الجديد: الاستيعاب المجزأ ومتغيراته"² تحديداً مقتضياً لما يسميه بالجيل الثاني الجديد، وذلك بوصفه مفهوماً يحيل على "أبناء المهاجرين بعد عام 1965، مما

¹ Chimienti, M., Guichard, E., Bolzman, C. et al. "How can we categorise 'nationality' and 'second generation' in surveys without (re)producing stigmatisation?", Comparative Migration Studies, no. 9 (2021), P 5.

² Portes Alejandro and Min Zhou. "The New Second Generation: Segmented Assimilation and Its Variants", The Annals of the American Academy of Political and Social Science, no. 530 (1993), pp 74–96.

يميزهم عن آبائهم المولودين في الخارج والجيل الثاني السابق من أصل أوروبي في مطلع القرن¹، كما يعرف مفهوم الجيل الثالث بأنه "الأطفال المولودين في الولايات المتحدة لوالدين مولودين أيا في الولايات المتحدة"².

في الوقت الذي يشير فيه تيمرمان Timmerman وزملائه، أنه "على عكس مهاجري الجيل الأول، فإن المنتمين إلى الجيل الثاني لم يختاروا الهجرة والعيش في بلد آخر، لذا فإن إطارهم المرجعي مختلف تماما. وهو يعرف الجيل الثاني والأجيال اللاحقة، بأنها تحيل على أولئك الذين ولدوا في بلجيكا أو الذين وصلوا إليها في سن ما قبل المدرسة (أقل من 7 سنوات) والذين كان أبائهم أو أجدادهم من أصل أجنبي. إنهم مواطنون بلجيكيون بغض النظر عن جنسيتهم"³.

كما أن هناك من يرى أنه يكفي أن يكون أحد الوالدين على الأقل مهاجراً حتى نتحدث عن الجيل الثاني. في حين هناك من يعتبر أن "الجيل الثاني" يتشكل من الأطفال المولودين في بلد الاستقبال، ويحملون جنسيته كما هو الحال بالنسبة لميشيل تريبالا Michèle Tribalat في كتابه "Faire France: une grande enquête sur les immigrants et leurs enfants" الذي يرى أن "الجيل الثاني" يتشكل من الأطفال المولودين في فرنسا، والحاملين للجنسية الفرنسية، والذين تتراوح أعمارهم بين 20 و29 عاماً⁴.

ومع امتداد فترة استقرار المهاجرين في بلدان الاستقبال، ولتجاوز الإشكالات المنهجية التي يطرحها هذا المفهوم، خاصة تلك المرتبطة بعدم تجانس الأفراد المصنفين ضمن نفس الفئة، لجأ بعض الباحثين إلى وضع أصناف جديدة لتمييز أبناء المهاجرين وأحفادهم، الأمر الذي أدى إلى تعميق التباينات المفاهيمية المرتبطة بمفهوم "الجيل" والمفاهيم المشتقة منه. فعلى سبيل المثال، تمت إضافة صنف الجيل الأول ونصف (1.5)، وهو الجيل الذي يتموقع بين الجيل الأول والثاني، والجيل الثاني ونصف (2.5) الذي يوجد بين الجيل الثاني والثالث. إذ تحدّد مونيكا بويد Boyd Monica الجيل 1.5 بأنه يشمل المستجوبين المولودين في الخارج والذين وصلوا كأطفال أو مراهقين صغار (قبل سن 15)، والجيل الثاني بأنه يضم المستجوبين المولودين في كندا والذين لدى أحدهم على الأقل والد مولود

¹ Portes and Zhou, P 74.

² Zhou, Min., "Segmented Assimilation: Issues, controversies and Recent Research for the New Second Generation," International Migration Review, (1997), no.31, p 988.

³ Timmerman, C., E. Vanderwaeren and M. Crul, "The Second Generation in Belgium" International Migration Review, no. 37 (2003), p 1068.

⁴ Emmanuelle Santelli, "De la deuxième génération aux descendants d'immigrés maghrébins", Temporalités, no. 2 (2004), P 32.

في الخارج (ومعظمهم له والدان مولودان في الخارج)، أما الجيل الثالث فيحيل في نظرها على المستجوبين المولودين في كندا والذين لدى أحدهم على الأقل والد مولود في الخارج (ومعظمهم له والدان مولودان في الخارج). نفس الأمر بالنسبة لفيليسيانو ولانوزا Feliciano Cynthia and Lanuza Yader، اللذان يعتبران أن "الجيل 1.5 هم الذين هاجروا وهم أطفال، أو الجيل الثاني المولود في الولايات المتحدة لأبوين مهاجرين"¹.

يمكن تتبع الاختلافات الواسعة حول المعايير المعتمدة في تصنيف أبناء وأحفاد المهاجرين إلى أجيال متعددة بشكل أوضح من خلال التصنيفين التاليين: الأول لشارلز وستن Charles Westin والثاني لأود برنارد Aude Bernard وفرانشيسكو بيراليس Francisco Perales.

يقسّم شارلز وستن المهاجرين إلى ثلاث فئات: الجيل الأول؛ وهم البالغون المولودون في الخارج، الذين تزيد أعمارهم عن 25 عامًا. والجيل الثاني؛ وهم الأشخاص الذين ولدوا في السويد من أحد الوالدين المولودين في الخارج على الأقل. ثم الجيل المتوسط وهم شباب ولدوا في بلد آخر ولكنهم نشأوا في السويد. وفي تحديده للمهاجرين المنتمين للجيل الثاني، يتحدث عن فئتين: فئة يمكن تدرج بوضوح ضمن هذا الجيل وهي تضم الذين تتراوح أعمارهم بين 0 و17 عامًا، والذين يعيشون عادةً مع والديهم وفي النظام التعليمي (ورعاية الأطفال).

لأنهم جزء من بيئة منزلية ستختلف في جوانب حاسمة من الناحية الثقافية واللغوية عن بيئة المجتمع السائد، ومع ذلك فإن هؤلاء الأطفال سيحضرون في الوقت نفسه مدارس منظمة وفقًا لقيم وأهداف المجتمع السائد التعليمية. وفئة أخرى قد تطرح بعض المشاكل من حيث التصنيف، ومع ذلك يمكن اعتبارها ضمن الجيل الثاني، وهي فئة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و24 عامًا، سواء في التدريب الجامعي أو يكملونه أو يثبتون أنفسهم في سوق العمل، جزءًا من الجيل الثاني. ويقرّ ويستن أن نقطة القطع تعسفية، ولكن في مكان ما على طول الخط يجب على المرء تحديد جيل جانبي يتكون من البالغين الذين لديهم أحد الوالدين على الأقل مولود في الخارج. تصبح قضايا محتوى الجيل الثاني أكثر اختلالاً عند إدراج البالغين المنتمين إلى هذه الفئة ضمن تعداد الجيل الثاني الأصغر سنًا. والحدّ الذي يقترحه هو 25 عامًا².

¹ Boyd Monica, "Social Origins and the Educational and Occupational Achievements of the 1.5 and Second Generations", Canadian Review of Sociology, vol. 46, no. 4 (2009), p 345.

² Charles Westin, "Young People of Migrant Origin in Sweden", The International Migration Review, vol. 37, no. 4 (2003), P 990.

أما أود برنارد وفرانشيسكو بيراليس فيصتفان، في دراستهما عن "انتقال رأسمال الهجرة بين الأجيال: دور تاريخ الهجرة العائلية وتجارب الهجرة المعاشة"¹ أجيال المهاجرين إلى خمس مجموعات: المجموعة الأولى: تشمل الأفراد الذين لم يهاجروا في مرحلة الطفولة والذين ولدوا في الدولة المستقبلة للآباء وتسمى هذه المجموعة الجيل الثالث (G3).

المجموعة الثانية: تشمل هذه المجموعة الأفراد المولودين خارج البلد المضيف للآباء ولدوا في دولة المسح وعادوا إلى البلد المضيف في سن 18 عاماً) والأفراد المولودين في البلد المضيف للآباء ولدوا في دولة المسح وهاجروا في مرحلة الطفولة وانتقلوا إلى دولة المسح قبل سن 18 عاماً. ونظراً لصغر حجم العينة، فقد جمع المؤلف هاتين المجموعتين وأطلق عليهما الجيل 2.75 (G2.75).

المجموعة الثالثة: تشمل المهاجرين من الجيل الثاني الذين ولدوا في البلد المضيف لوالدين ولدا خارج دولة المسح ولم يهاجروا في طفولتهم.

المجموعة الرابعة: تضم أفراد الجيل 2.5 الذين لديهم أحد الوالدين فقط، مولود خارج البلد المضيف، ويفترض أن للوالدين تاريخ هجرة أضعف.

المجموعة الخامسة: تشمل المهاجرين من الجيل 1.5 الذين ولدوا خارج للبلد المضيف لوالدين ولدا خارجها وهاجرا إليها في طفولتهما.

3. التحديات المنهجية والنظرية لمفهوم الجيل في دراسات الهجرة:

مثلما هو الحال بالنسبة للإشكالات الكثيرة التي أثارها وما يزال مفهوم "الجيل" على مستوى تحديد عناصره وتوظيفه كصنف تحليلي في مختلف الحقول المعرفية التي حاولت استخدامه (الفلسفة، التاريخ، السوسيولوجيا)، فإنه يلاحظ أيضاً تعدد استعمالات المفهوم في الدراسات والأبحاث المتعلقة بقضايا الهجرة والمهاجرين، إلى درجة دفعت البعض إلى رفض استعماله واستبداله بمفاهيم أخرى، في الوقت الذي يرى فيه البعض الآخر أن الإبقاء على استخدامه، بالرغم من المشاكل الكثيرة التي يثيرها على المستويين النظري والمنهجي، يمكن أن يكون له فوائد علمية، شريطة استعماله بدقة وحذر ابستمولوجيين. فقد اعترف كينغ راسل Russell

¹ Aude Bernard Francisco Perales, "The intergenerational transmission of migration capital: The role of family migration history and lived migration experiences", Demographic Research, Vol. 50, no. 29 (2024), P 840.

King وأناستازيا كريستو Anastasia Christou على سبيل المثال، أن "مفهوم الجيل يطرح العديد من التحديات سواء كمفهوم وصفي أو كفتة تحليلية. وأن الاستخدام المرن للغاية للمصطلح، تجعل التعريفات غير واضحة وغير دقيقة"¹. لكن مع ذلك يستمرّان في استعمال مفهوم الجيل الثاني بوصفه مفهوماً مناسباً في نظرهما.

كما يدعو بوريللي ورودين Borrelli and Ruedin، إلى إعادة النظر في بعض المصطلحات الأكثر استخداماً في دراسات الهجرة، خاصة في البحوث الإمبريقية الكمية، لأنها تفتقر إلى الدقة، وقد تقودنا إلى إجابات مسبقة، تعيد إنتاج مثل الدول القومية ككيانات متجانسة يمكن التمييز بينها وبين "المهاجرين من مختلف الفئات". وهما يسلطان الضوء على أربع إشكاليات مرتبطة بهذه المصطلحات، خاصة "الجيل الثاني" و"خلفية الهجرة"²: Migration Background

- العديد من المصطلحات تصور المهاجرين باعتبارهم متجانسين.

- المفاهيم المستخدمة تتوافق مع منطق إداري متجذر في المنطق الاستعماري والتمييزي، وهي لا تعكس كيفية إدراك الجمهور للاختلاف.

- تعمل على إدامة الاختلاف مع مرور الوقت، خاصة في الأماكن التي ينبغي أن يخفف فيها من أهمية هذا الاختلاف.

- يتم استخدامها في سياقات مختلفة دون مراعاة العوامل البنيوية أو النظر في عواقب التصنيفات، مما يسمح بمزيد من تهميش أولئك الذين يتم تمييزهم.

يعتبر الباحثان أنه يمكن للنظر إلى المهاجرين وأحفادهم، باعتبارهم مجموعات أقلية عرقية، أن يكون له مزيداً أكثر مما لـ "لخلفية الهجرة" و"الجيل الثاني" وأن الإحجام عن استعمال المجموعات العرقية في تحليل أوضاع المهاجرين في أوروبا، يعود إلى إرث تاريخي مثل الهلوكوست والاستعمار، بالإضافة إلى المعايير المناهضة للعنصرية³.

¹ Anastasia Christou, Russell King, "Imagining 'home': Diasporic landscapes of the Greek-German second generation", *Geoforum*, vol. 41, no. 4 (2010), 639.

² Borrelli L and Ruedin D, P 2.

³ Borrelli and Ruedin, P 8.

في نفس السياق، تتساءل ميلينا كيمييتي وآخرون، "كيف يمكننا تصنيف الجيل الثاني دون إعادة إنتاج الوصم؟"¹. ولتجاوز الإشكالات المنهجية لمفهوم الجيل في دراسات الهجرة والتخفيف من حدة عدم التجانس الذي يطبع الأفراد الذين يصنفون عادة ضمن الجيل الثاني، تُعيد ميلينا كيمييتي وآخرون تعريف المفهوم وتقترح تصنيفاً جديداً، وذلك بالتمييز بين "الجيل الثاني" و"الجيل الثاني ونصف"².

حيث يشمل الصنف الأول: الجيل الثاني المولود في سويسرا: وهم الأفراد الذين ولدوا في سويسرا وكان كلا والديهم مهاجرين ويحملون جنسية أجنبية. والجيل الثاني، الذين لم يولدوا في سويسرا ولكنهم وصلوا قبل سن العاشرة: وهم الأفراد الذين وصلوا إلى سويسرا قبل سن العاشرة وكان والديهم مهاجرين من جنسية أجنبية. أما الصنف الثاني (الجيل 2.5)، فيشمل الأفراد الذين ولدوا في سويسرا وكان أحد والديهم سويسرياً أصلياً، وأولئك الذين وصلوا إلى سويسرا في سن الحادية عشرة أو بعد ذلك.

على خلاف الآراء التي تعتبر أن مفهوم الجيل مفهوم مناسب لدراسة القضايا المرتبطة بالمنحدرين من المهاجرين، يجادل جوليان كلوك وآخرون Klokk, J, أنه "لا يمكن نعت الجيل الثالث بـ "المهاجرين" فالارتباط الاجتماعي للجيل الثالث ببلد المنشأ هو في المقام الأول نتيجة ثانوية لشبكات آبائهم وأجدادهم العابر للحدود الوطنية" كما يرفض إيمانويل سانتلي³ استعمال مفهوم الجيل الثاني، ويفضل كبديل عنه، مفهوم "المنحدرين من المهاجرين" Descendants d'immigrés. فقد سبق لإيمانويل سانتلي Emmanuelle Santelli في مقال له بعنوان "من الجيل الثاني إلى المنحدرين من المهاجرين المغاربة"⁴ أن طرح سؤالاً عن الأسباب الكامنة وراء الاهتمام والنجاح الذي لاقته فكرة "الجيل الثاني"؟ فيجيب استناداً إلى ما أكد عليه سابقاً السوسولوجي الجزائري عبد المالك الصياد، حينما اعتبر أن هذه التسمية (الجيل الثاني) جعلت من الممكن تأكيد القطيعة مع جيل الآباء، لأنه، بحكم التعريف، لا يوجد جيل إلا بالامتياز عن الجيل السابق، كما تذكر كلودين أتياس- دونفوت Claudine Attias

¹ Chimienti et al, P 3.

² Chimienti et al, P 9.

³ Jolien Klokk, Theo van Tilburg et al, "Comparing generations of migrants transnational behaviour: the role of the transnational convoy and integration", Comparative Migration Studies, Vol. 8, no. 46 (2020), p 4

⁴ Santelli Emmanuelle, "De la seconde génération" aux descendants d'immigrés: constructions identitaires et enjeux sociaux", Migrations Société, vol. 113, no. 5, (2007), pp 15-56.

Donfut أن إسناد وجود خاص جدًا لهذا الجيل يعني المساعدة في توسيع الهوية بين الآباء، المنتمين لزمن آخر، وأطفالهم¹.

ويؤكد إيمانويل سانتلي أنه على النقيض مما يوحي به مفهوم "الجيل الثاني"، فإن المنحدرين من المهاجرين بعيدون كل البعد عن أن يشكّلوا مجموعة متجانسة. فبالنسبة له "الجيل الثاني" غير موجود، «la deuxième génération» n'existe pas² وهو يقدم كمثال على ذلك عدم التجانس الذي يميز المنحدرين من المهاجرين الجزائريين، حيث يشكّل هؤلاء، حسب العمر الهجروي L'âge migratoire الذي ينتمون إليه، عدّة أجيال (بمعنى عمر الحياة). فقد أصبحنا اليوم أمام منحدرين من المهاجرين الجزائريين الذين يمرون بمراحل مختلفة جدًا من دورة حياتهم. إذ من السهل في نظره أن نلاحظ أنهم ليسوا جميعًا "شبابًا"، كما يوحي مصطلح "الجيل الثاني من المهاجرين"، بل إنهم في مراحل مختلفة من حياتهم، بعضهم في المدرسة، والبعض الآخر أشخاص نشطون، وحتى ما قبل متقاعدون، بعضهم لا يزال أطفالًا، والبعض الآخر يبلغ من العمر ما يكفي لتكوين أسرة، أو أجدادًا بالفعل. ويستشهد بالنتائج التي توصل إليها من خلال البحث الميداني الذي أنجزه في إطار تحضيره لأطروحة الدكتوراه، حيث تبين أن أعمارهم كانت بين 25 و55 عامًا، مع العلم أنه كان قد اختار عينة بحثه، بناءً على معيارين فقط: أن يكون لديهم أبوين جزائريين والمهنة التي يشغلونها³.

ويضيف إلى ذلك، أن المنحدرين من المهاجرين الجزائريين، نظرًا لتنوع أوضاعهم العائلية، ومسارات الهجرة، ومكانتهم بين الأشقاء، وجنسهم، وأماكن إقامتهم، وما إلى ذلك، ينشئون في سياقات اجتماعية مختلفة جدًا. إذ يشهد السياق الاقتصادي وأساليب الاندماج المهني في سوق العمل من فترة إلى أخرى تباينًا مستمرًا. فعلى سبيل المثال، يشير إيمانويل سانتلي إلى أن أطفال المهاجرين الذين وصلوا إلى فرنسا في الستينيات والسبعينيات واجهوا وضعًا اقتصاديًا مختلفًا تمامًا عما عن تلك التي يواجهها أولئك الذين يحاولون حاليًا (أو منذ التسعينيات) العثور على عمل. إذ تغيّرت شروط الاندماج بشكل كبير (نوع عقد العمل، الوظيفة التي يشغلها، طريقة الوصول، وما إلى

¹ Santelli, p 51.

² Ibid., P 37.

³ Ibidem.

ذلك)، وكذلك احتمالات الترقى الاجتماعي¹ وقد استخدم هوغ لاغرانج Huges Lagrange نفس المفهوم في كتابه "نكران الثقافات"² أثناء حديثه عن المهاجرين في فرنسا.

كما يمثل الزواج المختلط، تحديًا تصنيفيًا بارزًا في دراسات الهجرة، إذ يُطرح تساؤل مشروع حول مدى مشروعية إدراج أبناء هذه الأسر ضمن الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين، لا سيما في الحالات التي يكون فيها أحد الوالدين قد وُلد في بلد الإقامة أو هاجر إليه طفلاً. وتستدعي هذه الحالات مقارنة دقيقة تأخذ بعين الاعتبار التفاوتات في التنشئة الاجتماعية، والانتماء الثقافي، ومسارات الاندماج، بدل الاقتصار على منطق النسب أو الانحدار البيولوجي، الذي قد لا يعكس بالضرورة التجربة الاجتماعية الفعلية لهؤلاء الأفراد.

أضف إلى ذلك، أن الاستخدام المستمر لمفهوم "الجيل" في توصيف أحفاد المهاجرين، يثير تساؤلات نقدية حول مدى وجهة الإبقاء عليه مع تعاقب الأجيال. فالتساؤل لا يتعلق فقط بالجيل الرابع أو الخامس، بل بالأساس بالجدوى العلمية من الاستمرار في تصنيف فئات اجتماعية وُلدت ونشأت في بلدان الاستقبال ضمن "سلالة مهاجرة"، مما قد يؤدي إلى إعادة إنتاج الوصم الثقافي وإدامة شعور الاغتراب الرمزي. ومع تراكم الأجيال، تزداد حدة عدم التجانس الداخلي بين من يُصنّفون ضمن "الجيل نفسه"، سواء من حيث الوضع الاجتماعي أو الهوية أو أنماط الاندماج، ما يجعل المفهوم يفقد تدريجيًا قدرته الوصفية والتحليلية. وقد سبق لزوو مين Zhou Min من خلال توظيفه لنظرية الاستيعاب الجزأ في فهم العملية التي يتم من خلالها دمج الجيل الثاني الجديد - أطفال المهاجرين المعاصرين - في نظام التقسيم الطبقي في المجتمع المضيف³.

حيث اعتبر أن هذه العملية تتشكل، على الأقل، من ثلاثة أنماط محتملة متعددة الاتجاهات: نمط الحراك الاجتماعي الصاعد الذي يؤدي إلى التثاقف والاندماج الاقتصادي في البنى المعيارية للطبقة المتوسطة الأمريكية؛ ونمط الحراك الاجتماعي الهابط، في الاتجاه المعاكس، الذي يُسهم التثاقف والاندماج الموازي في الطبقة الدنيا؛ ثم الاندماج الاقتصادي في الطبقة المتوسطة الأمريكية، مع ثقافت متأخر والحفاظ المتعمد على قيم مجتمع المهاجرين وتضامنهم⁴. كما أكد بيرلمان جويل وروجر ولدينجر Perlman Joel and Roger Waldinger بأن الجيل الحالي من أبناء المهاجرين في أمريكا، يواجه تحديات مختلفة عن تلك التي كان يواجهها الجيل الثاني في الماضي، غير

¹ Santelli, P 38.

² هوغ لاغرانج، نكران الثقافات، ترجمة سليمان رياشي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016 بيروت، ص 349.

³ Zhou Min, p 975.

⁴ Ibid, p 984.

أنها ليست بالضرورة أسوأ. إذ أصبحت هناك فرض أكبر للنجاح والاندماج، خاصة بالنسبة لمن يملكون مستوى تعليمي جيد¹. مع أنهما يقران في نفس الآن بأن التمييز العنصري أصبح أكثر تعقيدا، خاصة بالنسبة للمهاجرين من إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية².

علاوة على ذلك، فإن التباينات والاختلافات العديدة في تحديد من يمكن أن يصنّف من المهاجرين ضمن الجيل الثاني أو الثالث أو جيل 1.5 أو جيل 2.5 أو 2.75 وغير ذلك، تطرح إشكالات جوهرية، فبالنسبة للجيل الثاني على سبيل المثال؛ هل ينبغي على الفرد أن يكون قد ولد في بلد الاستقبال أم يكفي أن يكون قد وصل في سن مبكرة مع والديه المهاجرين؟ ثم ما هي هذه السن المبكرة بالتحديد؟ هل هي ثلاث سنوات، خمس، ستة عشر... إلخ؟ وهل ينبغي أن يكون كلا الوالدين مولودين في الخارج أم واحد فقط يكفي؟ وقبل ذلك كله، إلى حدّ يصدق وصف أبناء المهاجرين وأحفادهم الذين ولدوا ونشأوا في البلد المضيف بـ "المهاجرين"؟

وبالتالي، فإن استعمال مفهوم الجيل في دراسات الهجرة يطرح سلسلة من الإشكالات المنهجية والنظرية المهددة لمبدأ وحد المفهوم في بناء المعرفة العلمية، والتي لا ينبغي تجاهلها؛ فمن ناحية تعريف المفهوم رأينا كمية الاختلاف الموجودة بين الباحثين، بين من يشترط الميلاد في بلد الاستقبال (الجيل الثاني) وبين من يقبل بالوصول إلى البلد المضيف في "سن مبكرة" (مختلف بشأنها هي الأخرى). بالإضافة إلى الاختلاف الحاصل حول مسألة الانتماء العائلي، وما إذا كان يكفي أن يكون أحد الوالدين مولوداً بالخارج أم يجب أن يكون كلاهما كذلك. كما يقود استعمال فئة "الجيل" إلى تبسيط مفرط وتجريد الفروقات الداخلية، فالجيل الثاني يضم شرائح اجتماعية وثقافية واقتصادية متباينة بشدة. كما أنه قد يخفف من أهمية عوامل زمنية وسياقية مثل سياسة الاندماج، وضعية المواطنة، والمسارات العابرة للحدود. بالإضافة إلى ذلك، يخفي الاعتماد الحصري على صيغة "الجيل" التداخلات التي تشكل تجارب الهجرة؛ مثل الطبقة، الجنس، العرق. لذا تُبرر هذه الإشكالات المنهجية النظر في بدائل مفاهيمية.

يترتب عن هذه الاختلافات نتائج حاسمة على مستوى اختيار العينة التي ستشملها الدراسة، وتصميم الاستمارات ودلائل المقابلات، وكذا النتائج والخلاصات التي تنتهي إليها الدراسات العلمية. إذ يفتح المجال أمام

¹ Perlman Joel and Roger Waldinger, "Second Generation Decline? Children of Immigrants, Past and Present - Reconsideration", International Migration Review, no. 31 (1997), p 894.

² Ibid, p 904.

الكثير من المتزلاقات والأخطاء، من قبيل التصنيفات الخاطئة، وتباين المؤشرات المستخدمة في تحليل أوضاع هذه الفئات الاجتماعية.

خاتمة:

إن تعدد التصورات حول مفهوم الجيل، من الدعوة إلى إعادة تعريف مفهوم الجيل وتفكيكه إلى فئات فرعية، إلى المطالبة بالتخلي عن المفهوم نهائياً لصالح مصطلحات بديلة، يؤكد على أن التباينات الكثيرة بين الباحثين في تحديدهم للمعايير المعتمدة في تصنيف أبناء المهاجرين وأحفادهم لأجيال من "المهاجرين"، بالرغم من أن بعضهم ليس له علاقة بفعل الهجرة إلا من جهة أصوله، وكذا في تعريفهم لمفهوم الجيل والمفاهيم المشتقة منه، ليست ناتجة عن تقديرات فردية، بل تمتد بجذورها إلى الأصول النظرية لمفهوم الجيل منذ بداية تداوله في العلوم الاجتماعية. وهو أمر يستدعي ضرورة الوعي بما يمكن أن يؤدي إليه الاستخدام العفوي للمفاهيم/المصطلحات المتداولة في مجال الهجرة دون اختبار مدى قدرتها على أداء وظائفها الإستمولوجية.

وحتى إذا لم تتوفر بدائل أفضل في الوقت الراهن، ينبغي الحذر من النزعة التصنيفية الزائدة التي قد تُسهم، من حيث لا تقصد، في إعادة إنتاج أنماط التمييز والوصم الثقافي أو الإثني. وتجنّب الاستخدامات الفضفاضة أو التبسيطية لمفهوم "الجيل"، والسعي إلى وضع صياغات أكثر وضوحاً ودقة مع ربطه باستمرار سياقاته التاريخية والاجتماعية، واستثماره نقدياً في فهم تباينات الواقع المركب لتجارب المهاجرين وأحفادهم. إذ إن مفهوم الجيل لا يُختبر فقط في ضوء دقته الإجرائية، بل أيضاً من خلال قدرته على فتح أفق للتفكير في استمرارية الانتماء إلى فئة المهاجرين، وتحولات الهوية، وأشكال الاندماج.

قائمة المراجع:

- لاغرناج هوغ، نكران الثقافات، ترجمة سليمان رياشي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016.
- مارشال جوردن، موسوعة علم الاجتماع، ج 1، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، المشروع القومي للترجمة، مصر، 2000.
- Anastasia Christou, Russell King, "Imagining 'home': Diasporic landscapes of the Greek-German second generation", *Geoforum*, vol. 41, no. 4 (2010).

- Aude Bernard Francisco Perales., “The intergenerational transmission of migration capital: The role of family migration history and lived migration experiences”, *Demographic Research*, Vol. 50, no. 29 (2024).
- Bolland Eric and Lopes Carlos. *Generations and Work*. Palgrave Macmillan, US, 2014.
- Borrelli L and Ruedin D. “Towards a precise and reflexive use of migration-related terminology in quantitative research: criticism and suggestions”, *Comparative Migration Studies*, Vol. 12, no. 10 (2024).
- Boyd Monica. “Social Origins and the Educational and Occupational Achievements of the 1.5 and Second Generations.” *Canadian Review of Sociology* 46(4), (2009).
- Bristow, Jennie. *The Sociology of Generations*. (London: Palgrave Macmillan, 2016).
- Chimienti, M., Guichard, E., Bolzman, C. et al. "How can we categorise 'nationality' and 'second generation' in surveys without (re)producing stigmatisation?", *Comparative Migration Studies*, vol. 9 (2021).
- Christou Anastasia Christou, Russell King., "Imagining 'home': Diasporic landscapes of the Greek-German second generation", *Geoforum*, vol. 41, no. 4 (2010).
- Costanza David P. Costanza, Cort W. Rudolph, Hannes Zacher., "Are generations a useful concept?", *Acta Psychologica*, vol 241, (2023).
- Cynthia Feliciano and Lanuza Yader R. “An Immigrant Paradox? Contextual Attainment and Intergenerational Educational Mobility.” *American Sociological Review* vol. 82, no. 1 (2017).
- Emmanuelle Santelli, "De la deuxième génération aux descendants d'immigrés maghrébins", *Temporalités*, no. 2 (2004).
- Joel Perlman and Roger Waldinger. “Second Generation Decline? Children of Immigrants, Past and Present - Reconsideration”, *International Migration Review*, no. 31 (1997).

- Klok Jolien Klok, Theo van Tilburg et al., "Comparing generations of migrants transnational behaviour: the role of the transnational convoy and integration", *Comparative Migration Studies*, Vol. 8, no. 46 (2020).
- Mannheim, Karl Mannheim., "The Problem of Generations", In Paul Kecskemeti, *Essays on the Sociology of Knowledge*, (London: 1952).
- Portes Alejandro and Min Zhou. "The New Second Generation: Segmented Assimilation and Its Variants" *The Annals of the American Academy of Political and Social Science*, vol. 530 (1993).
- Santelli, Emmanuelle., "De la seconde génération" aux descendants d'immigrés : d'immigrés : constructions identitaires et enjeux sociaux", *Migrations Société*, vol. 113, no. 5, (2007).
- Scocco, Marta Scocco., "Second generation: a theoretical reflection on an ever-changing concept", *Ethnic and Racial Studie*, vol. 48, no. 8 (2024).
- Timmerman, C., E. Vanderwaeren and M. Crul., "The Second Generation in Belgium" *International Migration Review*, vol. 37 (2003).
- Westin, Charles Westin., "Young People of Migrant Origin in Sweden", *The International Migration Review*, vol. 37, no. 4 (2003).
- Wohl, Robert Wohl., *The generation of 1914*. (Cambridge: Harvard University Press, 2009).
- Zhou, Min., "Segmented Assimilation: Issues, controversies and Recent Research for the New Second Generation." *International Migration Review*, vol.31 (1997).

البلاغة والبيداغوجيا عند محمد عابد الجابري
Rhetoric and Pedagogy in Mohammed Abed al-Jabri
الباحث منير بورد (البعثة الفرنسية بالرباط، المغرب)
Mounir Bourd (French Mission, Rabat, Morocco)

Abstract:

This article examines the relationship between rhetoric and pedagogy in Mohammed Abed al-Jabri's discourse by analyzing the mechanisms through which his discourse is constructed in the Critique of Arab Reason project, one of the most prominent contemporary Arab intellectual undertakings. The study is based on the assumption that rhetoric, in al-Jabri's work, is not merely a stylistic device but a structural component that performs central pedagogical and argumentative functions, contributing to the simplification of philosophical and epistemological issues and to the orientation of their reception. The article analyzes selected examples from al-Jabri's writings to reveal the manifestations of this relationship through key mechanisms, including linguistic simplicity, exemplification, extensive use of texts, and dialogic construction with the reader, highlighting their role in achieving comprehension and persuasion while maintaining the methodological rigor of scholarly discourse. The study concludes that the success and wide dissemination of al-Jabri's project cannot be attributed solely to its epistemological propositions, but also to the rhetorical and pedagogical manner in which they are shaped within a discourse consciously guided by educational and communicative aims.

Keywords: Rhetoric – Pedagogy – Discourse.

مستخلص:

يتناول هذا المقال العلاقة بين البلاغة والبيداغوجيا في خطاب محمد عابد الجابري، من خلال الوقوف على آليات بناء خطابه في مشروع نقد العقل العربي، بوصفه أحد أبرز المشاريع الفكرية العربية المعاصرة. وينطلق البحث من فرضية مفادها أن البلاغة عند الجابري ليست مجرد أداة أسلوبية، بل مكون بنيوي يؤدي وظائف بيداغوجية وحجاجية مركزية، تسهم في تبسيط القضايا الفلسفية والابستمولوجيا وتوجيه تلقيها. ويقوم المقال بتحليل نماذج معينة من نصوص الجابري للكشف عن تجليات هذه العلاقة من خلال آليات أساسية، من بينها بساطة اللغة، والتمثيل، والتوظيف المكثف للنصوص، وبناء الحوار مع القارئ، مبرزاً دورها في تحقيق الإفهام والإقناع وإشراك المتلقي في بناء المعنى مع الحفاظ على الصرامة المنهجية للخطاب العلمي. ويخلص البحث إلى أن نجاح مشروع الجابري وانتشاره الواسع لا يعود إلى أطروحاته المعرفية فحسب، بل يرتبط أيضاً بكيفية تشكيلها بلاغياً وبيداغوجياً داخل خطاب واع بمقاصده التربوية والتواصلية.

الكلمات المفتاحية: بلاغة - بيداغوجيا - خطاب.

مقدمة:

يعد محمد عابد الجابري أحد أبرز المفكرين العرب المعاصرين الذين أسهموا إسهاماً عميقاً في مساءلة التراث العربي وإعادة بنائه على أسس نقدية وعقلانية، من خلال مشروعه الفكري المتكامل المعروف بنقد العقل العربي، وقد انصبّت جل الدراسات التي تناولت هذا المشروع على أبعاده الفلسفية والابستمولوجية والإيديولوجية، مركزة على أطروحاته ومواقفه المعرفية ومنهجه في قراءة التراث، في حين ظل البعد الخطابي والبلاغي في كتابات الجابري، وما يتصل به من رهانات بيداغوجية وتواصلية، في منأى عن الاهتمام.

من هذا المنطلق يسعى المقال إلى مقارنة خطاب محمد عابد الجابري من زاوية مختلفة، تتمثل في استجلاء العلاقة بين البلاغة والبيداغوجيا في كتاباته، والكشف عن الكيفية التي أسهمت بها الآليات البلاغية في تبسيط أطروحاته الفكرية، وتوجيه تلقيها، وضمان انتشارها الواسع لدى جمهور متنوع يضم القارئ المتخصص وغير

المتخصص على السواء، فالخطاب عند الجابري، على الرغم من انتمائه إلى حقل الفلسفة والفكر النقدي، يتسم بوضوح لغته، وكثافة تمثيلاته، وبعده الحوارية، واعتماده المكثف على النصوص، وهي سمات لا يمكن فهمها دون استحضار المقاصد البيداغوجية التي تحكم بناء هذا الخطاب وتوجه آلياته.

ويذهب هذا المقال إلى أن البلاغة عند الجابري ليست مجرد زخرف أسلوبية أو أداة تزيينية، بل هي عنصر بنيوي في تشكيل خطابه، ووسيلة فاعلة في تحقيق أغراضه البيداغوجية والحجاجية؛ إذ استثمر إمكانات اللغة العربية، من تمثيل واستعارة وتشبيه وحوار، من أجل تقريب المفاهيم الفلسفية المعقدة، وتيسير الولوج إلى قضايا التراث والعقل العربي، وبناء علاقة تفاعلية مع القارئ تقوم على الإشراك والتوجيه في آن واحد.

ولبيان العلاقة بين البلاغة والبيداغوجيا عند الجابري يقوم المقال بتحليل نماذج مختارة من رباعية نقد العقل العربي، بوصفها الحقل الأبرز الذي تتجلى فيه مظاهر التداخل بين البلاغة والبيداغوجيا، وذلك من خلال الوقوف على آليات أساسية مثل: بيانية اللغة، والتمثيل، وتوظيف النصوص، وبناء الحوار، مع ربط هذه الآليات بوظائفها التبليغية والحجاجية. وبهذا يسعى البحث إلى الإسهام في توسيع أفق قراءة مشروع محمد عابد الجابري، وبالتالي تنبيه المهتمين بخطابه إلى جانب لم يحظ بالعناية والاهتمام اللازمين.

1. ما البلاغة؟

معلوم أن البلاغة العربية تداخلت منذ ظهورها مع مجموعة من المباحث والعلوم: علوم اللغة، علوم القرآن والتفسير، الفقه، النقد الأدبي... فتعددت بذلك روافدها وتنوعت أسئلتها واهتماماتها ولهذا اختلف البلاغيون في تحديد مفهومها؛ ويكفي أن نعود إلى كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري فقط، كي نتبين هذا الاختلاف والتنوع؛ بحيث نجده يثبت مجموعة من التعاريف المتقاربة أحيانا والمتباعدة أحيانا أخرى¹، ومعنى هذا أن مفهوم البلاغة حظي باهتمام كبير في التراث العربي؛ إذ اهتم الأوائل بتحديدده من خلال حصر الصفات والخصائص التي تجعل من قول ما قولاً بليغاً، غير أن تنوع الروافد التي نشأت عنها البلاغة، كما سبقت الإشارة، أدى إلى تعدد التعاريف واختلافها، بل إننا نجد أن علماء البلاغة أنفسهم لم يجمعوا على تعريف واحد؛ فالبلاغة عند الجاحظ ليست هي البلاغة عند الخفاجي أو عند الجرجاني والسكاكي ومن جاء بعدهما، ولعل هذا ما دفع حازم القرطاجني إلى القول: "وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته

¹ أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت، ص: 20، 48، 58.

مع استنفاد الأعمار"¹، وقد ظل سؤال ماهية البلاغة مطروحا في كل مرحلة من مراحل تاريخها الطويل بل ومستمرًا إلى اليوم بحيث "ما زلنا مضطرين لمواجهة غياب الوحدة في هذا المجال، كما لو أن الضبابية واللعنة الأصليتين اللتين ألققتنا بهما قديما ما زالتا تطاردانها"².

والحق أنه منذ أخذ بعض الباحثين على عاتقهم مهمة إعادة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة نسقية زال عن مفهوم البلاغة هذا الغموض الذي يكتنفه، وأصبحت الصورة التي تقدمها إلينا كتب البلاغة واضحة ومتكاملة، ولعل أهم من اضطلع بهذه المهمة الدكتور محمد العمري، الذي عمل في مشروعه البلاغي على قراءة التراث البلاغي قراءة نسقية، تروم إعادة تعريف البلاغة تعريفا عاما يراعي الجهود الحديثة في مد سلطانها لاسترجاع ما ضاع منها في ظروف وهنأ ويستوعب كل منجزات البلاغة العربية.

يرى الدكتور محمد العمري أن لفظ البلاغة يتسع لمفهومين اثنين: أولهما إنشائي ينصرف إلى النصوص البليغة المتميزة عن الكلام العادي بلغتها وشكلها وهي نوعان: نصوص بليغة ذات نزوع تخييلي كالنص الشعري وأخرى ذات نزوع حجاجي كالخطابة والرسالة، وتتفرع عن هذين النوعين مجموعة من الأجناس الأدبية الأخرى كالمقامة والرحلة والقصة والرواية والمسرحية... وهكذا يفتح المفهوم الإنشائي للبلاغة على مختلف أصناف الخطاب.

وثانئهما وصفي وينصرف إلى جانبين: الأول، يتمثل في العلم الذي يهتم بدراسة الكلام الإنشائي؛ أي تحليل مختلف أنواع الخطابات البليغة مع مراعاة خصوصيات كل نوع، ذلك أن هناك دائما مسافة بين النظرية البلاغية أي البلاغة باعتبارها مجموعة من المبادئ النظرية المتعالية وبين البلاغة بوصفها أداة لتحليل نصوص حية أي مقارنة علمية، والبلاغي هو الذي يستطيع التوفيق بين هذين المستويين فلا يبقى حبيس المنطلقات النظرية فيقع في آفة الإسقاط والتعسف ولا يتجرد منها فينخرط انخراطا كليا في عالم النص، ويصطلح الأستاذ العمري على هذا المستوى "البلاغة التطبيقية" ويمكن أن نميز في هذا المستوى بين اتجاهين أحدهما يهتم بدراسة النصوص الشعرية (الشعرية) والثانية يعنى بالنصوص الإقناعية ويكشف عن آلياتها الحجاجية (الخطابية)، ويتمثل الجانب الثاني في العلم الذي يصف هذه البلاغة التطبيقية ويستخلص منها مبادئ الخطاب الموصوف بهدف بناء نظرية بلاغية، ويمكن أن نصطلح على هذا الجانب قياسا على الجانب الأول "البلاغة النظرية" لأنها تتجه إلى وضع قواعد ومبادئ نظرية تفسر الموضوع المدروس تفسيرا علميا.

¹. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986، ج 2، ص: 88.
². محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2017، ص: 65.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البلاغة تحضر بمفهومها الإنشائي والوصفي في خطاب محمد عابد الجابري؛ فهو ينشئ خطابا بليغا متميزا، عز أن نجد له نظيرا في الثقافة العربية، كما أنه يهتم في مواضع متعددة من مشروعه الفكري بوصف وتحليل مجموعة من النصوص والشواهد مستعينا بجهاز مفاهيمي يستمد عناصر من مجالات معرفية مختلفة، وسنركز في هذا المقال على المستوى الإنشائي من خلال الوقوف على أبرز الآليات التي جعلت من خطاب الجابري خطابا بليغا قادرا على الوصول بأفكاره وقضاياها إلى عدد كبير من القراء على اختلاف مستوياتهم، وبما أن المجال لا يسمح بتتبع هذه الآليات في جميع أعماله فإننا سنقتصر على مشروع نقد العقل العربي باعتباره من أهم ما كتبه الجابري في مساره العلمي والفكري، كما أن جزءا كبيرا من هذا المشروع كان عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبته في الجامعة وهو ما يجعل منه مجالاً خصبا لرصد مظاهر العلاقة بين البلاغة والبيداغوجيا، وبعبارة أخرى كيف استثمر الجابري ما تتيحه اللغة العربية من إمكانات وآليات بلاغية لخدمة المقاصد البيداغوجية أو تربوية لمشروعه الفكري.

2. بساطة اللغة:

يتميز الخطاب الفكري عند الدكتور محمد عابد الجابري بنوعه البياني المتمثل في قدرته على تبسيط أفكاره وقضاياها بشكل يجعلها في متناول قاعدة واسعة من القراء، كما يتجلى أيضا في قدرته على شد انتباه قارئه وتوجيهه إلى نتائج بعينها ودفعه إلى التسليم بصحتها، وقد انتبه مجموعة من الباحثين إلى هذه السمة ولكنهم لم يكشفوا عن مظاهرها في خطابه ولم يحاولوا تفسيرها¹ ومثال ذلك ما أورده الناقد هشام غصيب في سياق مناقشته لمشروع

1. هناك دراسة بعنوان "الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري" للدكتور محمد العمري نهدت إلى هذا الجانب الذي يهتم به في دراسة خطاب الجابري خاصة في المحور الأول منها (الوظيفة التبليغية البيداغوجية) ولكنها اكتفت بالوصف الخارجي للخطاب؛ أي لم تستدل على ما سجلته من ملاحظات بأمثلة من خطاب الجابري، كما أنها بقيت في حدود الوظيفة البيداغوجية للبلاغة ولم تتجاوز ذلك إلى بيان وظيفتها الحجاجية فصحيح أن الجابري أكد في مواضع متعددة من مشروع نقد العقل العربي أنه يتوجه بخطابه إلى طلاب العلم ومن في حكمهم، ولذلك يحرص على تبسيط المادة المعرفية وبناء خطابه بشكل يجعله في متناول الفئة المستهدفة ولكن هذا لا يعني أن الهاجس الوحيد الذي يحرك الجابري في هذا العمل هو الهاجس التبليغي البيداغوجي، بل إنه يسعى إلى جانب ذلك إلى إقناع هذا القارئ بأفكاره ومواقفه؛ فالجابري صاحب دعوى وبروم الاستدلال على سلامتها بواسطة مجموعة من الأدوات البلاغية، وهكذا تؤدي البلاغة في خطابه وظيفة أخرى وهي الوظيفة الحجاجية، ويمكن تفسير اقتصار الأستاذ العمري على الوظيفة البيداغوجية فقط بكونه يهدف إلى رصد مختلف مظاهر الحضور البلاغي في جميع أعمال الجابري وليس دراسة خطابه دراسة حجاجية، بحيث يقترح المداخل الممكنة لقراءة خطاب الجابري ويفتح الطريق أمام الباحثين لتعميق ملاحظاته وخلصاته. انظر محمد العمري، "الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري" ضمن "محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة"، تنسيق كمال عبد اللطيف، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016، ص: 97 - 132. وقد استفاد الأستاذ إدريس جبري بشكل كبير من هذه الدراسة في بناء كتابه الأخير "البلاغة والفلسفة في أعمال محمد عابد الجابري" حيث اهتم ببيان مظاهر التقاطع بين البلاغة والفلسفة عند الجابري في ضوء المداخل الثلاثة التي يقترحها الأستاذ العمري وهي: "الوظيفة التبليغية البيداغوجية" و"البلاغة التطبيقية" ثم "البلاغة في نسق العقل البياني". انظر إدريس جبري، البلاغة والفلسفة في أعمال محمد عابد الجابري، دار العين، القاهرة، 2020.

نقد العقل العربي؛ إذ يقول: "إن قوة محمد عابد الجابري تكمن في سحر بيانه وأسلوب عرضه ونقاشه. فليديه طريقة مميزة في اللعب بالأفكار وتشريحها وربطها ببعضها أو تفكيكها عن بعضها. ومن ذلك بالذات تنبع خطورته"¹. ويتحقق هذا النزوع البياني بواسطة مجموعة من الآليات أبرزها اللغة التي تتميز بالبساطة والوضوح؛ فهي لغة مباشرة بعيدة عن التكلف والغموض، قلما تتوفر لغيره من المفكرين، تجعل نصوصه مفهومة عند القارئ المختص وغير المختص، ومن هنا ذلك المبدأ العام الذي يحكم مختلف كتاباته؛ ويتعلق الأمر بمراعاة الفئة المستهدفة المتمثلة في طالب العلم ومن في حكمه؛ وقد أكد الجابري في مناسبات عديدة الهاجس التربوي الذي يهيمن على أسلوبه في الكتابة، بحيث يقول، على سبيل المثال لا الحصر، في كتاب "العقل السياسي العربي": "إن هذا الكتاب يتجه بالخطاب، مثله مثل كتبنا الأخرى إلى قطاع واسع من القراء معظمهم طلاب أو في حكم الطلاب"²، وهو ما يفرض على صاحبه أن يتبع مسلكا مخصوصا في معالجة موضوعاته وتحليلها، مسلكا يأخذ بعين الاعتبار طبيعة القارئ ويساعده على الانخراط في نسق العمل وتحصيل قضاياها الأساسية، مستعينا في ذلك بمختلف الآليات لتحقيق هذا المسعى التبليغي، و"ربما أدرك الجابري أن هناك من لن يفهم إلا بالخشيبات فاستعملها، وهذا لن يجد قبولا عند الفلاسفة الذين يفضلون استشكال ما يبدو واضحا وبدهيا"³؛ فمن المعروف أن الخطاب الفلسفي، بشكل عام، يتسم بنوع من الغموض، ويرجع ذلك إلى خصوصية هذا الخطاب الذي يفرض على صاحبه الانضباط للمقتضيات العلمية والمنهجية والالتزام بتوظيف مفاهيم غير متداولة بين عامة القراء، لأنه يتوجه إلى قارئ متخصص في مجال الفلسفة.

وقد انتبه الدكتور طه عبد الرحمان إلى هذا الأمر، إذ يرى أن الكاتب في هذا المجال مخير بين أمرين اثنين؛ فأما الأول فهو أن ينشئ خطابا يتوجه إلى الجمهور ويأخذ بعين الاعتبار مستواه المعرفي، وفي هذه الحالة ستصبح الاعتبارات المنهجية والعلمية التي يقوم عليها الخطاب الفلسفي أمرا ثانويا، لأن الغرض هو التواصل مع القارئ العادي، وأما الثاني فهو أن ينشئ خطابا يسعى إلى بلوغ الحقيقة ويراعي الاعتبارات المنهجية والشروط العلمية، وفي هذه الحالة لن يفهمه إلا القارئ المختص، وقد اختار طه عبد الرحمان أن يسلك هذا المنحى في إنشاء خطابه الفلسفي؛ بحيث يرى أنه لن يستطيع الاستدلال على دعاواه ومواقفه في قراءة التراث العربي إذا ألزم نفسه

1. هشام غصيب، هل هناك عقل عربي؟ قراءة نقدية لمشروع محمد عابد الجابري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993 ص: 19.

2. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة العاشرة، بيروت، 2017، ص: 53.

3. محمد العمري، "الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري" ضمن محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة، ص: 109.

بمخاطبة الجمهور، ويؤكد طه عبد الرحمان موقفه قائلاً: "إنه إذا جاز أن يتوجه الكاتب إلى الجمهور ليخاطبه بما قد يحفظ مستواه أو حتى ينزل به، فكذلك يجوز أن يتوجه إليه بخطابه بما قد يعلو بمستواه، أما أنا فقد آثرت أن أرفع مستوى القارئ على أن أضع مستوى الخطاب العلمي"¹.

وبناء على هذا، فإذا كان طه عبد الرحمان قد اختار بناء خطابه الفلسفي وفق المقتضيات المعرفية والمنهجية التي لا يفهمها إلا أهل الاختصاص، معرضاً عن الكتابة التي تخاطب الجمهور، فإن الجابري قد اختار أن يجمع بين الأمرين؛ أي أن يبني خطابه على أسس علمية ومنهجية ويحرص في الآن نفسه على البعد التربوي - التبليغي الذي يجعل من خطابه مفهوماً لدى قاعدة واسعة من القراء، وإذا كان طه عبد الرحمان قد أثر أن يرتفع بمستوى القارئ إلى مستوى خطابه، مع ما يفرضه ذلك على القارئ من مجهود مضاعف قصد مساندة إيقاع هذا الخطاب، فإن الجابري قد أثر أن ينزل بالمعرفة الفلسفية من مجالها العالم إلى مستوى المتلقي دون أن يحط ذلك من قيمة عمله، ودون أن يخل بالقواعد المنهجية والمعرفية التي يقوم عليها الخطاب العلمي، مستثمراً في ذلك ما تتيحه اللغة من إمكانات بلاغية كالاستعارة والتمثيل... لتيسير ما يعرضه من قضايا وأفكار وجعلها في متناول القارئ العادي وحمله على التسليم بصحتها؛ فالبلغة كما هو معلوم تؤدي وظيفة تخيلية عندما يتعلق الأمر بالخطاب الشعري، وتؤدي وظيفة حجاجية عندما يتعلق الأمر بالخطابات الإقناعية، كما أنها تصدر آلياتها البيانية المتمثلة في التشبيه والتمثيل والاستعارة والأسطورة والبديعية أيضاً كالسجع والطباق إلى الخطابات العلمية والفلسفية لتأدية مهام بيداغوجية تتمثل في تبسيط مادتها وتقريبها من القارئ².

وتجدر الإشارة هنا إلى أن توجيه الجابري خطابه إلى طلاب العلم بالذات لم يكن الغرض منه بيداغوجياً فحسب كما فسر ذلك؛ أي تعريفهم بمباحث التراث العربي ومكونات الثقافة العربية بشكل عام وغيرها من التفسيرات، بل كان لغرض سياسي أيضاً؛ فالجابري كان "يمارس السياسة في الثقافة"³ بعد أن اعتزل ممارستها في إطارها الأصلي، ذلك أنه إذا كان من مهام السياسة تطهير المواطنين بمختلف فئاتهم خاصة الشباب لأجل أهداف معينة، فإن الجابري وجه خطابه إلى الشباب بالدرجة الأولى لأنه كان يعول عليه في إحداث التغيير المنشود، فكان يعده ويؤطره لأجل القيام بتلك المهمة الصعبة بتمكينه من اكتساب آلية النقد "نقد المجتمع ونقد الاقتصاد ونقد

¹. طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، منشورات الزمن، الكتاب رقم: 13، 2008، ص: 51.

². محمد العمري، "الوظيفة البلاغية والرؤية البيانية في أعمال الجابري" ضمن محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة، ص: 100.

³. عبد السلام بن عبد العالي، سياسة التراث دراسات في أعمال محمد عابد الجابري، دار توبقال، الدار البيضاء، 2011، ص: 5.

العقل، العقل المجرد والعقل السياسي (...) إنه بدون ممارسة هذه الأنواع من النقد بروح علمية سيبقى كل حديث عن النهضة والتقدم والوحدة في العالم العربي حديث أماني وأحلام¹.

3. التمثيل:

يعتمد الجابري على التمثيل بشكل كبير في بناء خطابه؛ بحيث يلجأ إليه من أجل تبسيط مضامين هذا الخطاب وإقناع القارئ بها، الشيء الذي يجعل منه ظاهرة أسلوبية تستحق الدراسة والتحليل، فإذا كان الباحثون في مجال الفلسفة قد تجاهلوا هذا الجانب البلاغي في كتابات الجابري فإن الباحثين في مجال البلاغة وتحليل الخطاب ينبغي أن يهتموا به وأن يكشفوا عن الدواعي الكامنة وراء استعماله.

وعليه سنبين في هذا المحور أهمية هذه الآلية في خطاب الجابري ودورها في تحقيق مقاصده البيداغوجية والحجاجية من خلال نموذجين؛ أولهما جاء في مقدمة كتاب "تكوين العقل العربي" التي خصصها الجابري لتقديم الدعوى العامة التي يقوم عليها مشروع نقد العقل العربي، ومضمون هذه الدعوى هو قراءة الثقافة العربية قراءة عقلانية من خلال النظر في الآلية التي أنتجتها، وساهمت هذه الثقافة أيضا في صناعتها وهي العقل العربي، وتقوم هذه الدعوى على مبدأين وهما: مبدأ النظرة الشمولية للثقافة العربية؛ أي عدم التمييز بين مجالات التراث العربي وتفضيل بعضها على بعض كما فعلت القراءات السابقة، ومبدأ النظر في الآليات المنتجة للثقافة العربية؛ أي دراسة العقل العربي بوصفه الأداة التي أنتجت هذه الثقافة واستبعاد مضامينها أي الآراء والنظريات والمذاهب لأنها لا تندرج ضمن البحث الاستمولوجي، ولتوضيح هذه الدعوى وتقريب مبادئها من المتلقي وإقناعه بها يلجأ الجابري إلى التمثيل بحيث يقول: "كان هدفنا في هذه المرحلة الأولى من البحث استخلاص هذه النظم بوصفها مناهج ورؤى (...) وفي عملية الاستخلاص هذه سلكنا مسلكا تكوينيا، فتبعنا تطور الثقافة العربية ككل، من البداية التي اخترناها، حريصين على النظر إلى فروع الثقافة (نحو، فقه، كلام، بلاغة، تصوف، فلسفة...) كغرف في قصر واحد، متصلة مترابطة، يقود بعضها إلى بعض عبر أبواب ونوافذ... وليس كخيام منعزلة مستقلة منصوبة في ساحة غير ذات سور ولا سياج، كما هو حال النظرة السائدة. لقد قمنا برحلة داخل أروقة الثقافة العربية، رحلة نقدية انصرف اهتمامنا خلالها إلى أسس هذه الأروقة وأعمدتها، وليس إلى معروضاتها"².

¹ محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 374.

² محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، 2017، ص: 6.

ويمكن توضيح عناصر هذه المماثلة على النحو الآتي:

المجال المصدر	المجال الهدف
غرف في قصر واحد مترابطة يؤدي بعضها إلى بعض	← النظرة الشمولية للثقافة العربية
خيام مستقلة عن بعضها البعض في ساحة ...	← النظرة التجزئية السائدة للثقافة العربية
الاهتمام بأسس الأروقة والأعمدة لا المعروضات	← الاهتمام بالأداة المنتجة للأفكار.

وبهذا تصبح دعوى التقويم التكاملي للتراث العربي عند الأستاذ الجابري واضحة بجلاء؛ فهو يشبه مباحث الثقافة العربية في ترابطها وتكاملها بغرف متصلة يؤدي بعضها إلى بعض من خلال الأبواب والنوافذ، وفي ذلك توضيح وتأكيد في الآن نفسه للنظرة الشمولية التي ما فتئ يذكر قارئه بها في مواضع متعددة من مشروعه النقدي¹، وفي المقابل فإن هذا التمثيل ينفي عن عمله سمة الانتقائية؛ إذ يؤكد أنه لن ينظر إلى مباحث الثقافة العربية كخيم متناثرة في صحراء واسعة لا رابط بينها، وفي ذلك بيان لطريقة تعامل القراءات التجزئية مع التراث العربي؛ فهي تفرق بين مباحثه وتفضل بعضها على بعض تبعاً لتوجهاتها السياسية وخلفياتها الأيديولوجية، ولم يفت الجابري أن يضمن التمثيل عنصراً يحيل القارئ على البحث الاستمولوجي الذي ينبني عليه تقويمه للتراث العربي، بحيث يشير إلى أن رحلته داخل أروقة الثقافة العربية سينصرف الاهتمام فيها إلى الدعائم التي تقوم عليها هذه الأروقة لا المعروضات، وبهذا يكون هذا التمثيل تصويراً دقيقاً لما يروم الجابري إنجازه في مشروعه النقدي؛ فهو، وإن جاء بشكل مكثف، يعكس الدعوى العامة التي يقوم عليها المشروع ويوضح مبادئها.

وعلى هذا الأساس يمكن القول، إن لجوء الجابري إلى التمثيل كان استجابة لدواعٍ بيداغوجية وحجاجية سيما وأن الأمر يتعلق بمقدمة مشروع نقدي حرص فيها المؤلف على عرض موضوع المشروع وأفكاره الأساسية بشكل واضح، كما حرص أيضاً على الاستدلال على جدوى عمله باعتباره من المحاولات الرائدة في نقد العقل العربي، مستثمراً في ذلك ما تتيحه اللغة من إمكانات من بينها التمثيل الذي ساهم بشكل كبير في توضيح الأطروحة التي يدافع عنها وبيان منهجها وتمييزها عن المحاولات السابقة التي تناولت الموضوع نفسه، وهنا تظهر القيمة التعليمية للتمثيل في الخطاب الفلسفي؛ إذ عادة ما يستدعى "الأداء دور تعليمي يتحدد في تيسير الحقائق الفلسفية وإكسابها

¹. انظر مثلاً محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، 2017، ص: 90.

نوعاً من الواقعية من خلال استثمار الصور المحسوسة، والأمثلة المستوحاة من الواقع الإنساني الملموس¹؛ ذلك أن هذا النمط من الاستدلال يسمح بإثبات حقيقة ما بواسطة التشابه في العلاقات²، وهكذا فإن قوته تكمن في كونه يقرب بين موضوعين من مجالين مختلفين لأجل الإفهام والإقناع؛ بحيث ساهم هذا التمثيل أيضاً في إقناع المتلقي بأهمية الموضوع، ذلك أن الاستعانة به، في هذا الموضوع بالذات، لم يكن لغرض بيداغوجي - تعليمي فحسب وإنما لغرض حجاجي أيضاً باعتباره "وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة؛ فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية لأنه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليشاهد كما هو في الواقع"³، وهذا يعني أن التمثيل عند الجابري ليس مجرد أداة تحسينية يلجأ إليها لتنميق خطابه وإضفاء بعد جمالي عليه، بل هو آلية من آليات بناء الخطاب عنده؛ بها يشد أفكاره ويجعلها واضحة في ذهن المتلقي فيسهل عليه بذلك إقناعه بها، وقد ميز بيرلمان بين الاستعمال التزييني أو العادي للاستعارة والتمثيل والاستعمال الحجاجي؛ بحيث يرى أن هذه الوجوه البلاغية تؤدي وظيفة حجاجية عندما تؤثر على المخاطب وتدفعه إلى قبول الصورة، ومتى غاب هذا الأثر كانت مجرد زينة أسلوبية⁴.

ويأتي النموذج الثاني في الفصل الثالث من "التكوين" الذي يدافع فيه الجابري عن أطروحة مفادها أن "عصر التدوين" هو الإطار المرجعي للعقل العربي وليس العصر الجاهلي ولا العصر الإسلامي، ذلك أن الصورة التي لدينا عن هذه العصور إنما بنيت في هذه الفترة، وليبيان مركزية هذه الفترة في الثقافة العربية ودورها في تحديد نظرة الإنسان العربي إلى الأشياء أي رؤيته للعالم يلجأ الجابري كعادته في تبسيط أفكاره وتوضيحها إلى التمثيل، باعتباره وسيلة أساسية لتبليغ الأفكار وتقريبها من الأذهان والتأثير فيها، بحيث يقول: "عندما يكون رجل الفضاء سابحاً في الأجواء العليا فإن سفينته تشكل بالنسبة إليه ما ندعوه بالإطار المرجعي - أو المنظومة المرجعية - التي يراقب الأشياء من خلالها وبواسطتها، فالكواكب والنجوم والسفن الفضائية الأخرى تكون بالنسبة إليه قريبة أو بعيدة،

¹ عبد الرزاق الدواي، "التخييل والتمثيل في الخطاب الفلسفي" ضمن بناصر البعزاتي، تكون المعارف دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117، 2005، ص: 142.

² Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique, Presses universitaires de France, 2^{ème} édition corrigée, 1994, p. 189

³ علي محمد علي سلمان، "الحجاج عند البلاغيين العرب" ضمن حافظ إسماعيل علوي، الحجاج والاستدلال الحجاجي، دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011، ص: 25.

⁴ Chaim Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca, Traité de L'argumentation la nouvelle rhétorique, Préface de Michel Meyer, édition de l'université de bruxelles, 2008, p. 229 - 231.

تحتة أو فوقه أسرع أو أبطأ بالنسبة إلى موقع سفينته وسرعتها. وبعبارة أعم فأشياء العالم كله إنما تتحدد بالنسبة إليه بخيوط وهمية تربطها إلى سفينته"¹.

يظهر من خلال هذا القول أن الجابري يعتبر الإنسان العربي بمثابة رجل فضاء، كما أنه يعتبر الثقافة العربية التي تشكلت في عصر التدوين بمثابة سفينة فضائية، وهكذا فكما أن رجل الفضاء يحدد موقعه وينظر إلى الأشياء التي تحيط به (نجوم، سفن فضائية، أجزاء متناثرة في الفضاء) ويقيس المسافة التي تفصله عنها بالاعتماد على المعطيات التي تقدمها له سفينته الفضائية، فكذلك الأمر بالنسبة للإنسان الذي ينتمي إلى الثقافة العربية أو أية ثقافة تتحدد نظرتة إلى محيطه ويتفاعل مع مكوناته انطلاقاً من المفاهيم والتصورات والقيم التي تمده بها ثقافته باعتبارها منظومته المرجعية سواء أكانت هذه الأمور التي ينظر إليها أو يتفاعل معها داخل ثقافته أو خارجها.

والملاحظ أن الجابري لم يكتف بتمثيل واحد بل جاء بتمثيل آخر يوضح فيه الكيفية التي يحدد بها رجل الفضاء (الإنسان العربي) موقعه من أشياء العالم بالاعتماد على المعطيات التي تمده بها سفينته (منظومته المرجعية) إذ يقول: "وبعبارة أعم فأشياء العالم كله إنما تتحدد بالنسبة إليه بخيوط وهمية تربطها إلى سفينته، تماماً مثلما يتحدد موقع المصباح المدلى وسط غرفة بخيوط وهمية تمتد إلى الجدار الذي يمثل طول الغرفة والجدار الذي يمثل عرضها والسقف الذي يمثل المسافة الفاصلة بينه وبين أرض الغرفة؛ الارتفاع أو البعد الثالث"²، وبذلك نفهم كيف ينظر الإنسان العربي إلى عالم ثقافته والعوالم المحيطة بها وكيف يحدد موقعه داخلها بالاعتماد على العناصر المكونة لمنظومته المرجعية، وكأن الجابري استشعر أن التمثيل الأول في حاجة إلى مزيد من البيان والإيضاح فانتقل إلى وضع آخر يشبه فيه المنظومة المرجعية بمصباح مدلى وسط غرفة تنبعث منه خيوط ضوء تحدد موقعه والمسافة التي تفصله عن كل جزء من أجزاء الغرفة وعن مكوناتها.

وعليه فالخيوط المنبعثة من الثقافة العربية كما تشكلت في عصر التدوين هي التي تحدد وعي الإنسان العربي ورؤيته للعالم، ويرى الجابري أن هذه الخيوط ما دامت هي نفسها ثابتة منذ عصر التدوين لم يتغير تركيبها ولم تتغير طريقة اشتغالها "فالزمن زمن الثقافة المعنية يبقى ممتداً، يتحرك في سكون وكأن الأمر يتعلق ببساط يمسك بواسطة الخيوط التي تؤلفه، جميع الأشياء الموضوعية فوقه ليشدها إلى حافته، أي إلى الطرف الذي انطلقت منه

¹. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص: 61.

². محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص: 61.

عملية النسيج يوم بدئ في نسجه"¹، وهذا نصيح أمام صورة أخرى تختلف من حيث مادتها عن الصورتين السابقتين ولكنها تكملهما من حيث المعنى وتزيد في توضيحه والإبانة عنه.

وعلى هذا الأساس يخلص الجابري إلى أن هذه "الحافة" التي انطلقت منها عملية النسيج هي عصر التدوين باعتباره الإطار المرجعي للثقافة العربية، الذي يؤطر نظرة الإنسان العربي إلى ثقافته والثقافات الأخرى، وبالتالي فإن تلك الخيوط الممتدة من حافة هذا البساط ليست شيئاً آخر غير العقل العربي، فهي التي شكلت صورة العصرين الجاهلي والإسلامي وجزءاً كبيراً من العصر الأموي في الوعي العربي، وقد ظلت ممتدة إلى اليوم "لتصنع الواقع الفكري الثقافي العام في الثقافة العربية العامة"²، وهكذا تتضافر هذه التمثيلات لتكوين صورة واضحة لدى المتلقي عن مكانة عصر التدوين في الثقافة العربية ودوره في تشكيل وعي الإنسان العربي.

4. النصوص:

يرتكز بناء الخطاب عند الجابري في رباعية نقد العقل العربي على توظيف النصوص بشكل ملفت للانتباه، بحيث يلاحظ أن تحليله للعقل العربي انطلق من النصوص بالأساس، وقد اعتمد الباحث هذه الطريقة في التحليل عن قصد منذ البداية، كما نوه بأهمية هذا المنحى في مواضع متعددة من مشروعه النقدي، فنراه ينبه القارئ في مقدمة كتاب "بنية العقل العربي" إلى ضرورة اعتماد النصوص في معالجة هذا الموضوع، بصيغة نلمس فيها اعتذاراً من المتلقي بسبب هذا الحضور المكثف للنصوص وما يترتب عنه من عناء أثناء القراءة، يقول: "إن هذا الكتاب كان من الممكن أن يكون أروح مرتين لو أننا اقتصرنا فيه على التحليل النظري ولم نكلف القارئ عناء الخوض معنا في تحليل ملموس لموضوعات ملموسة: كان هذا الكتاب سيكون أروح للقارئ لو أننا قدمنا آراءنا جاهزة غير مقيدة ولا مثقلة بما تستند عليه من مواد فضلنا تركها في كثير من الأحيان، تعرض نفسها بنفسها"³.

وهذا يوفر الجابري على قارئه عناء العودة إلى المصادر من أجل الوقوف على هذه النصوص، ويعفيه بذلك من جهد كبير سيما وأنه يحرص في بعض الأحيان على إيراد النص بكامله وقد يستغرق ذلك صفحات مهمة من الكتاب⁴، وهكذا يكون الجابري قد سهل المهمة على قارئه؛ بحيث عمل على نقله إلى اللغة العربية، أولاً، وإيراده

1. نفسه، ص: 62.

2. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص: 62.

3. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، 2017، ص: 9.

4. نفسه، ص: 263 - 268.

كاملا بعد أن قدم له مستخلصا موجزا يوضح فيه مضامينه الأساسية، ولكن هذا لا يعني أن الجابري يجمع النصوص ويعرض الآراء وهنا ينتهي عمله، إذ ليست هذه النصوص سوى أدوات بيداغوجية يوضح بها أفكاره وآليات حجائية يستدل بها على مواقفه ويدعم بها فرضياته.

والملاحظ أن توظيف النصوص في بناء الخطاب عند الجابري يتخذ مظهرين أساسيين؛ أولهما يتجلى في استحضار نصوص لتوضيح فكرة ما أو لدفع المتلقي للتسليم بصحة دعوى معينة، ويحضر هذا النوع في الرباعية برمتها، وثانيهما يتمثل في إيراد نصوص معينة وتحليلها لإثبات فرضية انطلق منها الباحث¹.

وتتطلع هذه النصوص بثلاث وظائف أساسية؛ تتمثل الأولى في الوظيفة البيداغوجية، بحيث تسهم هذه النصوص بشكل كبير في توضيح الفكرة التي يروم الباحث تبليغها إلى المتلقي، ولهذا نجد الجابري يورد فقرات طويلة أحيانا من المؤلفات المرتبطة بالقضية موضوع البحث لتكوين صورة واضحة عنها لدى المتلقي، ولما كان طول هذه النصوص قد يثقل على القارئ فقد كان الجابري ينبه قارئه، من حين لآخر، إلى دورها في توضيح المقصود، فيشد انتباهه ويدفعه إلى الخوض في قراءة هذه النصوص وتبين ما يسعى الباحث إلى كشفه، كأن يقول، مثلا، بعد إيراده مجموعة من النصوص المقتطفة من كتاب "الألفاظ المستعملة في المنطق" للفارابي في سياق دراسته لتصنيف الألفاظ عند هذا الأخير: "ونحن نستسمح القارئ إذا نقلنا هنا فقرات مطولة مما كتبه الفارابي في هذا الموضوع، لأن الاطلاع على النص كما هو سيجعلنا نلمس بوضوح الطريقة البيداغوجية الذكية التي قصد الفارابي بها تحويل اهتمام البيانين من الألفاظ إلى المعاني..."².

أما الوظيفة الثانية فهي الوظيفة الحجائية، وتتجلى في إثبات ما يقدمه الجابري من آراء وأحكام؛ إذ كلما كانت هذه الآراء والأحكام مسنودة بنصوص تثبت صحتها كان إقناع المتلقي بها أمرا سهلا، وقد أكد الجابري هذا البعد الحجائي للنصوص في مناسبات متعددة ومثال ذلك قوله في مقدمة كتاب "بنية العقل العربي": "لقد أردنا أن تكون أحكامنا تحمل معها مستنداتها، وأردنا أن تكون هذه المستندات متنوعة تنطق باسم كيان العقل العربي ككل"³.

1. على سبيل التمثيل لا الحصر، تحليله لنص الذهبي عن حركة التدوين، الصفحات: 62 – 63 من كتاب تكوين العقل العربي، وأيضا تحليله لنص أورده ابن النديم في "الفهرست" تحت عنوان "ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد"، الصفحة: 222 من الكتاب نفسه.

2. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 430.

3. نفسه، ص: 9 – 10.

ويبدو أن الجابري يستعمل هنا لفظة "المستندات" بدل لفظة النصوص، والمستندات في اللغة من فعل سند، يقال: "سند إليه: ركن إليه، واعتمد عليه واتكأ (...)" وسانده مساندة وسنادا: عاونه وكانفه"¹، وعليه فالمستندات هي وثائق يتكى عليها الجابري لتبليغ أفكاره وإقناع المتلقي بصحتها، ومعلوم أن كلمة المستندات من الكلمات المتداولة بشكل كبير في المجال القانوني والقضائي على وجه الخصوص، ويقصد بها تلك الوثيقة التي يقدمها أحد طرفي الدعوى لإقناع القاضي بصحة ادعائه، ومقتضى هذا أن الجابري يعتبر نفسه في هذا المشروع النقدي صاحب دعوى، وعليه أن يدفع القارئ إلى التسليم بصحتها معتمدا في ذلك على ما تقدمه المدونة التراثية من نصوص تزكي ما يذهب إليه.

بينما تتمثل الوظيفة الثالثة في تقييد الكلام، ذلك أن الاعتماد على الاستشهادات أثناء الكتابة من شأنه أن يجعل الكلام دقيقا ومضبوطا، وهو ما يفهم من كلام الجابري: "إننا نؤمن بأهمية اعتماد النصوص في المرحلة الراهنة من تطورنا الفكري؛ فهي وحدها التي تكبح جماح الرغبة وتضع حدا للاستهتار في الكتابة"².

وإلى جانب هذه الوظائف يمكن الإشارة أيضا إلى غرض تربوي يتمثل في كون الجابري يسعى من خلال هذا التوظيف المكثف للنصوص إلى تمكين قارئه من مهارتين، لا غنى للباحث عنهما؛ أولاهما مهارة استثمار المقروء في الكتابة العلمية، والثانية هي مهارة تحليل النصوص، ويؤكد الجابري هذا المقصد التربوي قائلا: "ونحن نعتقد أن حاجة طلابنا إلى كيفية استثمار النصوص استثمارا منهجيا لا تقل عن حاجتهم إلى التحليل الذي يفتح أمامهم آفاقا جديدة، ولذلك حاولنا الجمع بينهما"³.

5. الحوار:

تلعب الحوارية دورا أساسيا في بناء الخطاب؛ ذلك أن الكاتب يستحضر أثناء الكتابة أسئلة القارئ واعتراضاته فيجيب عنها ويرد عليها، كما يستحضر أيضا آراء ومواقف مجموعة من الباحثين الذين اهتموا بالموضوع الذي يكتب فيه، فيبني عليها أو يناقشها أو يعترض عليها فيدخل خطابه بذلك في حوار مع خطاباتهم، ويؤكد باختين أن كل خطاب يتضمن حوارا محتملا يرجع إلى شخصين بحيث يرى أنه إذا كنا نقول: الأسلوب هو الإنسان أو الرجل فإنه بإمكاننا القول "إن الأسلوب هو رجلان، على الأقل، أو بدقة أكثر، الرجل ومجموعته الاجتماعية مجسدين

¹. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (س، ن، د).

². محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 53.

³. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 53.

عبر الممثل المفوض، المستمع، الذي يشارك بفعالية في الكلام الداخلي والخارجي للأول¹. ويبدو أن الجابري كان على وعي تام بهذه المسألة بحيث يرى أن المثقف "هو شخص يفكر، بصورة أو بأخرى مباشرة أو لا مباشرة انطلاقاً من تفكير مثقف سابق: يستوحيه، يسير على منواله، يكرره، يعارضه، يتجاوزه... ليس هناك مثقف يفكر من الصفر"².

وتتخذ الحوارية مظاهر متنوعة في خطابه أهمها الحوار البيداغوجي الذي يكون المخاطب فيه القارئ المتعلم ومن يدخل في حكمه؛ فالجابري يستحضر أثناء الكتابة هذا النوع من القراء ويبني خطابه بشكل يجعل ما يقدمه من قضايا وأفكار في متناوله، كما أنه يفترض الأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلى ذهنه ويسعى إلى الإجابة عنها فيكون الخطاب في هذه الحالة مبنيًا على حوار ضمني بين الكاتب والقارئ، ومثال ذلك ما جاء في مقدمة كتاب "العقل الأخلاقي العربي" بحيث يقول: "وإذا كان القارئ قد سبق له أن رافقنا في رحلتنا عبر تكوين العقل العربي وبنية العقل العربي والعقل السياسي العربي (...). فلا شك أنه قد طرح مسألة المنهج والرؤية التي تعودنا طرحها: ما هي المنهجية التي سنتبعها؟ وما هو نوع الرؤية التي سنواجه بها هذه القارة الجديدة"³.

يظهر من خلال هذا الكلام أن الجابري يفترض أن من بين الأسئلة التي يمكن أن يطرحها القارئ هي السؤال عن المنهجية التي سيتبعها في دراسته للعقل الأخلاقي العربي وطبيعة الرؤية التي سيواجه بها هذا العقل؛ فبما أنه عرض في مقدمات الأجزاء السابقة لخطوات المنهج وعناصر الرؤية التي سيتبعها في معالجة الموضوع فقد كان طبيعياً أن يطرح القارئ هذه الأسئلة وهو مقبل على جزء جديد من مشروع نقد العقل العربي ويتعلق الأمر بالعقل الأخلاقي، لذلك يحرص الجابري في بداية الكتاب على الإجابة عن هذه الأسئلة بالقول: "سيكون علينا إذن أن نحدد جهازنا المفاهيمي، وأن نواجه مسألة المنهج والرؤية مرة أخرى من البداية"⁴، وهذا يعني أن الجابري في حوار دائم مع القارئ يفترض أسئلته ويجيب عنها كما أنه على علم مسبق بانتظاراته وتوقعاته فيقيم بناء علمها حواراً افتراضياً، ومثال ذلك، فعندما انتقل الجابري إلى دراسة العقل السياسي العربي افترض أن القارئ بعد قراءته للجزئين الأول والثاني سيطرح السؤال التالي: هل سيتحدث الجابري عن العقل السياسي ضمن التصنيف الثلاثي للنظم المعرفية

1. تيزفيطان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحوارية، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996، ص: 124.

2. محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 2000، ص: 7.

3. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السابعة، 2016، ص: 19.

4. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص: 20.

في الثقافة العربية (بيان، عرفان، برهان)؟¹ ويتابع الجابري كلامه مجيباً عن سؤال آخر يتفرع عن السؤال الأول يمكن صياغته على الشكل التالي: وهل يرتبط العقل السياسي بالنظم المعرفية التي تحكم عملية التفكير في الثقافة العربية؟ فيجيب بالقول: "أجل، العقل السياسي في أية حضارة يرتبط ضرورة بالنظام أو النظم المعرفية التي تحكم عملية التفكير في هذه الحضارة، فقط، بما هو عقل وليس بما هو سياسي"².

ومقتضى هذا القول، إن الجابري يفترض أن القارئ سيقول بعد أن أجابه عن السؤال الأول: إذن إذا كان الجابري لن يتحدث عن العقل السياسي في إطار التصنيف الثلاثي المعروف فهل هذا يعني أن العقل السياسي غير مرتبط بنظم المعرفة في الثقافة العربية؟

ودفعا لهذا الفهم يتدخل الجابري لبيان طبيعة العلاقة بين هذا العقل ونظم المعرفة في الثقافة العربية وهي علاقة ارتباط بطبيعة الحال، تتمثل في كون السياسة توظف مضامين هذه النظم لخدمة أغراضها، ومعنى هذا أن العقل السياسي لا يخضع للنظم المعرفية الثلاثة في الثقافة العربية بل يحاول إخضاعها لما يريد تحقيقه نظراً لطبيعته النفعية، ويأتي الجابري في نهاية هذا التوضيح بالاستفهام التالي: "فهل ننتظر من العقل السياسي أن يناقض موضوعه، ما منه يستمد هويته؟" وهو استفهام خرج عن معناه الحقيقي ليفيد الإثبات والتقرير، فهو موجه إلى القارئ لدفع التوهم بانفصال العقل السياسي عن نظم المعرفة وتأكيد ارتباطه بها.

ونجد هذا الأمر حاضراً أيضاً في مقدمة كتاب "العقل الأخلاقي العربي" بحيث يفترض الجابري أن قارئه سيطرح، لا محالة، مجموعة من الأسئلة بعد قراءته للأجزاء الثلاثة الأولى ترتبط بتصنيف الموضوع؛ إذ سيتساءل مرة أخرى عن موقع هذا العقل والإطار الذي يندرج ضمنه، فهل سيحتفظ الجابري بالتصنيف الأخير الذي وضعه في الجزء الثالث فيتحدث مثلاً عن: أخلاق العقيدة وأخلاق القبيلة وأخلاق الغنيمة أم أنه سيعود إلى التصنيف الأول فيتحدث عن أخلاق بيانية وعرفانية وأخرى برهانية؟ ويجيب الجابري عن هذه الأسئلة قائلاً: "إننا لو فعلنا ذلك لارتكبنا خطأ مضاعفاً: فمن جهة سنكرر بعض ما قلناه بصدد مضامين القبيلة والغنيمة والعقيدة (...) ومن جهة أخرى كنا سنفرض على موضوعنا تصنيفاً لا يستوعبه ونمذجة لا تغطي جميع فضاءاته"³.

1. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 8.

2. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 8.

3. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص: 21.

وفي إطار هذا الحوار مع القارئ يحرص الجابري على إشراكه في بناء الخطاب، وقد أكد الجابري هذا القصد مرات متعددة نذكر منها ما يلي:

- يقول الجابري في معرض حديثه عن الجهاز المفاهيمي الذي سيوظفه في دراسة العقل السياسي العربي: "ورغبة منا في إشراك القارئ معنا في الخلفيات النظرية التي تؤطر، بصورة ما، رؤيتنا لموضوع بحثنا فقد تجنبنا عرض المفاهيم التي سنوظفها عرضاً معجمياً..."¹.

- ويؤكد الجابري في الكتاب نفسه هذا القصد (إشراك القارئ) بالقول: "ولذلك رأينا من المفيد - ودائماً في إطار إشراك القارئ معنا في الخلفيات النظرية والمنهجية التي تؤطر جانباً من تفكيرنا - أن نقوم بإطلالة سريعة على بعض القضايا التي أبرزتها هذه الاجتهادات..."².

- ويقول في مقدمة كتاب "العقل الأخلاقي العربي" بعد أن بين أهمية الموضوع: "وهذه المغامرة سيقوم بها القارئ معنا، وسيتحمل ما سيكون علينا أن نتحمله من مشاق، ويستمتع بما عسى أن يكون في طريقنا من مشاهد ترتاح لها النفس"³.

- ويقول، مثلاً، في سياق الحديث عن أهمية ضمير الغائب الذي يوظفه أدب الترسل لأجل التأثير في المتلقي وتمير مجموعة من القيم الأخلاقية والدينية التي تتحول بسبب التكرار إلى قيم نمطية تفرض نفسها كعاديات أخلاقية، يقول: "وحتى لا نبقى سجناء ضمير الغائب في التعامل مع هذا النوع من الخطاب (الترسل)، نرى من المفيد إشراك القارئ معنا في تأمل هذه العبارات التي ننقلها من أربعة نماذج..."⁴.

يظهر من خلال ما سبق أن إشراك القارئ مبدأً أساسياً في بناء الخطاب عند الجابري، بحيث يحرص على جعله منخرطاً في جميع مراحل إنجاز الموضوع معتمداً في ذلك على بعض الآليات اللغوية التي تفيد هذا الإشراك، كضمير المتكلم الجمع الذي يفيد القرب والمشاركة؛ إذ يجعل هذا الضمير الباحث ناطقاً باسمه وباسم القارئ، كما يجعل هذا الأخير قريباً منه ومشاركاً له في بناء الخطاب، وهكذا يتدخل القارئ على نحو مباشر في بناء الخطاب، بحيث يسهم حضوره في ذهن الباحث في توالد الأفكار من جهة وفي النزوع إلى التبسيط والتوضيح من جهة أخرى لأن الغرض من هذا التفاعل هو تحقيق الإفهام والإقناع، و يقتضي هذا الأخير توجيه القارئ؛ فصحيح أن الجابري

1. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص: 9.

2. نفسه، ص: 30.

3. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص: 19.

4. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص: 136.

يشرك قارئه في بناء الخطاب، كما بينا ذلك، ولكنه إشراك لا يخلو من توجيه؛ فهو يوهم القارئ بأنه مساهم في معالجة الموضوع ومشارك في بنائه خطوة خطوة، والحال أنه أخذ بزمام توجيهه في كل مرحلة من مراحل الدراسة والتحليل، محددًا له الطريق التي سيسلكها في القراءة وهي طريق تقوده إلى نتيجة محددة بشكل مسبق وتخدم الغرض الذي يسعى الخطاب إلى تحقيقه.

وكيفما كان الأمر، فإن الحوار في هذا المنحى هو حوار بيداغوجي بالدرجة الأولى لأن المخاطب في هذا المستوى هو القارئ العادي أو طالب العلم ومن في حكمه حسب تعبير الجابري، الذي أكد في مناسبات عديدة أن معظم مؤلفاته تتوجه إلى هذا القارئ بالذات، ولذلك فهو يحرص على مراعاة خصوصية هذه الفئة المستهدفة من خلال النزوع إلى الشرح والتفسير والأخذ بعين الاعتبار مختلف الأسئلة التي يمكن أن تطرحها والإجابة عنها، وبالتالي فالخطاب هو نتاج تفاعل بين المتكلم والمخاطب "فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه، كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره وكأن الغير ينطق بلسانه (...)" وانفراد المتكلم بالسبق الزمني ما كان ليلزم عنه انفراد بتكوين مضمون الكلام، بل ما أن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المخاطب دلالاته"¹.

خاتمة:

يتبين من خلال هذا المقال أن البلاغة تحتل موقعا مركزيا في خطاب محمد عابد الجابري، إذ لا تقتصر وظيفتها على التزيين الأسلوبي، بل تضطلع بأدوار معرفية وبيداغوجية وحجاجية أساسية في بناء مشروعه النقدي، فقد أظهر التحليل أن اعتماد الجابري على بساطة اللغة، وكثافة التمثيل، والتوظيف المنهجي للنصوص، وبناء الحوار مع القارئ، يشكل منظومة متكاملة تهدف إلى تبسيط القضايا الفلسفية وتقريبها من المتلقي، وضمان انخراطه في مسار القراءة دون التفريط في الصرامة المنهجية التي يقتضها الخطاب العلمي. كما كشف المقال أن هذا التداخل الواعي بين البلاغة والبيداغوجيا أسهم في توسيع دائرة تلقي مشروع نقد العقل العربي ومنحه بعدا ثقافيا وتربويا يتجاوز التداول النخبوي الضيق، وهو ما يجعل من خطاب الجابري نموذجا لكتابة فكرية تجمع بين العمق المعرفي والنجاعة التواصلية. ويفتح هذا المنظور البلاغي- البيداغوجي آفاقا جديدة لقراءة المشروع الجابري، كما يدعو إلى إعادة النظر في موقع البلاغة داخل الخطاب الفلسفي العربي المعاصر بوصفها أداة فاعلة في إنتاج المعرفة ونقلها.

¹. طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، 2014، ص: 50.

قائمة المراجع:

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط.
- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكري العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
- إدريس جبيري، البلاغة والفلسفة في أعمال محمد عابد الجابري، دار العين، القاهرة، 2020.
- بناصر البعزاتي، تكون المعارف دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117، 2005.
- تيزفيطان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحوارية، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986.
- حافظ إسماعيل علوي، الحجاج والاستدلال الحجاجي، دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011.
- طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، منشورات الزمن، الكتاب رقم: 13، 2008.
- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، 2014.
- عبد السلام بن عبد العالي، سياسة التراث دراسات في أعمال محمد عابد الجابري، دار توبقال، الدار البيضاء، 2011.
- محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2017.
- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السابعة، 2016.
- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة العاشرة، بيروت، 2017.

- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 2000.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، 2017.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، 2017.
- هشام غصيب، هل هناك عقل عربي؟ قراءة نقدية لمشروع محمد عابد الجابري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993.
- Chaim Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca, *Traité de L'argumentation la nouvelle rhétorique*, Préface de Michel Meyer, édition de l'université de bruxelles, 2008.
- Olivier Reboul, *Introduction à la rhétorique*, Presses universitaires de France, 2^{ème} édition corrigée, 1994.

سمات وخصائص اللغة المتخصصة

Features and characteristics of specialized language

د. أنس مالموس (المدرسة العليا للتربية والتكوين بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي، المغرب)

Dr. Anas Malmous (Higher School of Education and Training, El Jadida, Chouaib Doukkali University, Morocco)

Abstract:

This paper aims to provide a definition of the concept of languages of specialization, as it is concerned with revealing the nature of the relationship and the link between the languages of specialization and the general or normal language, in addition to showing and reviewing the most important characteristics of the languages of specialization and distinguishing them from other linguistic patterns and forms.

Based on the foregoing, this paper stems from a set of fundamental questions, the most prominent of which can be presented as follows:

- What is meant by specialized languages?
- What is the nature of the relationship that links it to the general language system?
- What are the most prominent characteristics of the specialization languages?

Keywords: languages of specialization - general language - characteristics of specialization languages - specialized terms.

مستخلص:

تهدف هذه الورقة إلى تقديم تحديد لمفهوم لغات التخصص، كما أنها تنشغل بالكشف عن طبيعة العلاقة والصلة التي تصل بين لغات التخصص وأنموذج اللغة العامة أو العادية، علاوة على أنها تروم تبيان واستعراض أبرز وأهم الخصائص التي تتسم بها لغات التخصص وتميزها عن الأنماط والأشكال اللغوية الأخرى.

بناء على ما تقدم، فإن هذه الورقة تنطلق من مجموعة من الأسئلة الجوهرية يمكن تقديم أبرزها كالآتي:

– ما المقصود بلغات التخصص؟

– وما طبيعة العلاقة التي تربطها بنسق اللغة العامة؟

– وما أبرز الخصائص التي تمتاز بها لغات التخصص وتميزها عن اللغة العامة؟

الكلمات المفتاحية: لغات التخصص - اللغة العامة - خصائص لغات التخصص - المصطلحات المتخصصة.

تقديم:

من المعلوم والمعروف أن اللغة في عمومها تعد وسيلة للتعبير بامتياز، علاوة على أنها تشكل الأداة المثلى التي توحد أفراد المجتمع وتتأسس عليها كل أنشطتهم التواصلية والتبليغية والإقناعية، واللغة داخل المجتمع تتخذ عدة أنماط بناء على الوظيفة أو الوظائف التي تسعى إلى إنجازها وتحقيقها.

لقد أفرز التطور والتقدم الحاصل على مستوى المجالات والميادين العلمية المختلفة والمتنوعة من طب وقانون واقتصاد وإعلام...، ظهور لغات تخصصية عديدة تختلف وتباين بحسب المجال الذي تصفه وترتبط به، وتمثل غاية لغات التخصص على اختلافها وتعددتها في تسهيل التواصل والتفاهم بين المتخصصين، كما أنها تشكل مفتاح فهم وإدراك التخصصات العلمية المتخصصة.

وتجدر الإشارة إلى أن لغات التخصص تتصل بالجانب المعجمي للغة، نظرا لكونها تنبني وتتأسس على ذخيرة لغوية مهمة قوامها المصطلحات المتخصصة الدالة والتي لها بعد وظيفي دقيق يرتبط بشكل مباشر بمجال أو حقل علمي محدد بذاته.

ارتباطا بما تقدم، فإن ورقتنا هذه تعنى أساسا بتحديد لغات التخصص، كما تطمح إلى إبراز طبيعة العلاقة التي تجمع بينها وبين اللغة العامة أو العادية، علاوة على رصد أهم خصائصها المميزة، وعليه، فإن هذه الورقة تحاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات المتداخلة والمترابطة من أهمها وأبرزها نذكر:

- ما المقصود بلغات التخصص؟

- ما طبيعة العلاقة التي تربط بين لغات التخصص واللغة العامة؟

- وهل تعتبر لغات التخصص أصلا أم أنها فرع؟

- وما أبرز الخصائص التي تمتاز بها لغات التخصص وتميزها عن اللغة العامة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات سنعمل في خطوة أولى على تحديد ومقاربة لغات التخصص، ثم يتم الانتقال لإبراز طبيعة العلاقة التي تربط بينها وبين اللغة العامة، وفي خطوة ثانية سنسعى إلى استعراض وتبيان أبرز الخصائص التي تمتاز بها لغات التخصص وتميزها عن باقي الأنماط اللغوية الأخرى خصوصا اللغة العامة.

1- لغات التخصص:

تعكس اللغة كما هو متعارف عليه مجالها وقطاعها الذي توظف فيه، ومن هنا يمكن القول إن ما يقصد بلغات التخصص (Languages of specialization) هي تلك اللغة المتداولة والمستعملة في مجال أو قطاع معين، مثال ذلك: لغة الطب، لغة القانون، لغة الاقتصاد والأعمال، لغة التعليم، لغة الإعلام...، وتؤدي لغات التخصص دورا شديدا الأهمية يتمثل في نقل معارف ومعلومات وحقائق خاصة لها علاقة مباشرة بالقطاع الذي تمثله وتوظف فيه. بالإضافة إلى هذا فيمكن القول إن لغات التخصص هي لغات اصطلاحية بمعنى أنها تتأسس على مصطلحات متخصصة، وذلك لارتباطها بمجالات وقطاعات متعددة تصف وقائعها وتنقل معارفها.

وتطلق على لغات التخصص عدة تسميات منها؛ اللغة الخاصة أو القطاعية أو لغة الأغراض الخاصة أو المحددة، وكل هذه التسميات تركز على فكرة أساسية وجوهرية تتجلى في تخصيص اللغة في مجال أو قطاع معين ومحدد بنفسه.

وتعرف لغات التخصص بكونها متخصصة من حيث ألفاظها ومصطلحاتها المرتبطة بقطاع معين، وبالتالي يمكننا أن نصرح في هذا السياق، بأن لغات التخصص هي " لغات معجمية" بالأساس، بمعنى أنها استمدت خصوصيتها انطلاقاً من معجمها الواصف الذي يتصل بقطاع معين يسعى لوصفه ونقل معارفه الخاصة. وهذا ما يؤكدده علي القاسمي (2019) إذ يقول أن اللغة التي تكثر فيها الألفاظ الخاصة أو المصطلحات العلمية والمهنية يمكن تسميتها باللغة الخاصة، ويسمى بعض اللغويين بلغة الأغراض الخاصة لتمييزها عن اللغة العامة التي تستعمل لأغراض الحياة اليومية بمختلف جوانبها، يسميها بعضهم الآخر باللغة القطاعية لأنها تستخدم في قطاع معين من قطاعات الحياة المتعددة¹.

وبناء على التصور المقدم أعلاه، يتضح لنا بأن لغات التخصص هي لغة خاصة، تمتاز بكثرة الألفاظ والمصطلحات المتخصصة ذات الصلة بمجال أو قطاع معين، أي أنها لغة خاصة بفئة معينة ومحددة داخل المجتمع مثل: لغة الأطباء، لغة الاقتصاديين، لغة الساسة، لغة المهنيين...، وهي تختلف عن اللغة العامة أو العادية لسبب بسيط يتمثل في ويتجلى في طبيعة معجمها وذخيرتها اللغوية الواصفة التي تمتاز بالخصوصية وأحادية التعبير، فضلاً عن اعتمادها على الأسلوب التقني الدقيق في التعبير والوصف.

وتعد اللغة العامة أو العادية (Common or General Language) لغة غير متخصصة وغير خاصة بمجال أو قطاع معين، وإنما هي لغة الحياة اليومية، وهي وسيلة لإنجاز وتحقيق التواصل العادي والمألوف مع العامة من الناس داخل المجتمع، وتسمى أيضاً باللغة المشتركة أو العادية لكونها مألوفة وشائعة بين الأفراد وغير محصورة في فئة مجتمعية محددة.

وسميت بهذا الاسم نظراً لشمولها وحضورها في جميع مناحي الحياة المتنوعة، وعدم تفرداها واقتصرها على مجال دون آخر، علاوة على اعتمادها على أسلوب لغوي عاد ومشارك يهدف إلى تحقيق هدف تواصل محض، ومعروفة باهتمامها على ذخيرة مفرداتية عامة غير متخصصة.

وتحدد اللغة العامة بحسب محمد علي الخولي بأنها تلك اللغة التي تلزم جميع الناس ويتكلمها أو يستخدمها جميع الناس في بلد ما، وهي لغة لا تخص أهل مهنة معينة أو حقلاً من حقول المعرفة².

¹ القاسمي علي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان. (2019). ص93-94.

² الخولي علي محمد، دراسات لغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن. (1998). ص32.

وبالتالي فاللغة العامة تعتبر لغة غير متخصصة وهي لغة العامة من الناس، وتستعمل لأغراض تواصلية عادية، وتمثل وظيفتها في تأمين وتيسير عملية التواصل بين مختلف أفراد المجتمع، وسميت لغة عامة نظرا لعدم اقتصرها على مجال أو قطاع معين.

وفي الأخير يمكن القول إن لغات التخصص تتطلب وتستلزم محيطا متخصصا لتداولها، خلافا للغة العامة التي تتداول في أي قطب أو مجال لا يتصف بالتخصص ويغيب فيه المتخصصون أي أنها لغة العامة والعوام من الناس، وهي لا تحدث تشويشا أو إشكالا في حصول الفهم والتفاهم بين الأفراد وإن تباينت مستوياتهم الثقافية...، لكونها تعمل على تغييب البعد التخصصي من ألفاظها ومفرداتها، خلافا لما هو موجود في اللغة المتخصصة التي يمكن أن تشكل عائقا في إنجاح التواصل بسبب تخصص ألفاظها ومصطلحاتها وارتباطها بقطاع مهني أو تقني محدد.

1-1- لغات التخصص واللغة العامة:

بداية يمكن القول إن هناك من يشكك بل ينفي وجود أي علاقة بين نسقي لغات التخصص واللغة العامة، بدليل اعتبار أن النسقين منفصلان تماما عن بعضهما، معنى هذا هو أن هناك من ينفي مسألة التعدد في اللغة الواحدة.

واعتبارا من الطرح الذي تم تقديمه أعلاه، فإننا نؤكد على أن العلاقة التي تجمع بين لغات التخصص التي تعتبر لغات خاصة واللغة العامة أو العادية هي علاقة جزء بكل (Meronymy)، ودليل ذلك هو وجود مجموعة من القواسم المشتركة التي تؤكد ذلك مثل اشتراكهما في نفس الخصائص اللسانية التركيبية والصرفية والمعجمية...، الاختلاف يكمن في كيفية تكييف هذه الخصائص مع المجال الذي تستخدم فيه اللغة، ولغات التخصص في تفاعل وتواصل مستمرين مع اللغة العامة التي تشكل موردا ورافدا لنسقتها.

وهذا ما يؤكد علي القاسمي (2019) إذ يصرح بأن اللغة الخاصة هي جزء من اللغة العامة، وتعتمد في وجودها عليها، وتستقي معظم عناصرها منها...¹

وبالتالي يمكن القول إن العلاقة التي تجمع بين النسقين تأخذ طابعا تفاعليا متبادلا، لأنه لا يمكننا أن نتصور لغة خاصة دون عامة والعكس صحيح، ودليل ذلك هو تسرب المصطلحات المتخصصة المختلفة من حيث

¹ القاسمي علي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، (2019). ص94.

المجالات من نسق لغة أو لغات متخصصة معينة وشيوعها في نسق اللغة العامة واستعمالها استعمالاً عادياً في حديث العامة من الناس من دون أي إشكال، وفي الجانب الآخر تستقطب اللغة المتخصصة مفردات متنوعة من اللغة العامة قصد إنتاج بنيات مقبولة وسليمة من حيث التكوين.

وبخصوص نوعية العلاقة التي تجمع النسقين اللغويين، يعتبر مبارك تريكي (2020) أن العلاقة بين اللغة العامة والخاصة هي علاقة جزء بكل، فاللغة العامة تمثل الكل أي تمثل الأصل أو المنبع الذي يرفد اللغة الخاصة، فهذه الأخيرة، لا تنفك تعود إليها لإنتاج وحداتها المعجمية والصرفية والتركيبية التي تتشكل منها نصوصها المتخصصة¹.

علاوة على هذا فإننا نجد أن لغات التخصص تستمد كل أوصافها ومعاييرها اللغوية أو اللسانية إن صح القول من نموذج اللغة العامة، الشيء الذي يؤكد العلاقة الوثيقة للنسقين، وترتبط لغات التخصص باللغة العامة بواسطة مجموعة من الوشائج اللسانية، تتمثل أساساً في كون اللغة المتخصصة تقتبس وتستقطب عناصرها ووحداتها اللغوية من اللغة العامة، فضلاً عن كون اللغة الخاصة تقتطع منها يناسبها من الألفاظ العامة التي تؤلف بينها وبين مصطلحاتها المتخصصة لتشكيل تراكيب لغوية مضبوطة ومفهومة، وهذا ما يؤكد الفاسي الفهري في سياق حديثه عن فكرة اتصال اللغة القطاعية باللغة العامة إذ يصرح بأن اللغة القطاعية تتصل باللغة العامة، ولا تكاد تخرج عن الأصول التي تتحكم فيها².

وما ندعم به فكرتها القائلة إن لغات التخصص هي فرع أو جزء من اللغة العامة هو أنها تسلك نفس المبادئ والآليات المعتمدة في نسق اللغة العامة في إغناء وتحديث معجمها وذخيرتها اللغوية المتخصصة، أي أنهما تخضعان لنفس مبادئ وسيرورات التوليد اللساني واللغوي الشيء الذي قد يشكل لوحده سبباً في تأكيد العلاقة الوثيقة التي تجمع بين النسقين اللسانيين.

عموماً، يمكن القول إن العلاقة التي تجمع قطبي لغات التخصص باللغة العامة هي علاقة تضمن واحتواء، أو علاقة جزء بكل، نقصد هنا أن لغات التخصص ما هي إلا فرع من اللغة العامة، تستقطب طرق نموها ومعاييرها وأوصافها مما هو معتمد وموجود في اللغة العامة، وبالتالي فاللغة العامة أصل واللغة المتخصصة فرع منها.

¹ تريكي مبارك، بحوث لسانية محكمة، مركز الكتاب الأكاديمي للنشر والتوزيع، الأردن، (2020)، ص 88.

² الفهري الفاسي عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، ج 2، ط 4، دار توفال، الدار البيضاء، (2000)، ص 226.

2- خصائص لغات التخصص:

تمتاز لغات التخصص بشكل عام بمجموعة من الخصائص التي تميزها عن اللغة العامة أو العادية، وتعد في حقيقة الأمر هذه الخصائص مقاييسا تعكس وتعبر عن الطبيعة اللغوية التي تطبع اللغات المتخصصة المتنوعة والمتعددة، ومنها نذكر:

1-1-2- خاصية الوضوح:

تتسم لغات التخصص في عمومها بخاصية الوضوح، معنى هذا هو أنها لغة غير غامضة وتعمل على نقل المعارف والمعلومات بوضوح تام.

وتتحقق هذه الخاصية باعتماد لغات التخصص على أساليب وتعبير لغوية بسيطة تتوخى إيصال المعارف بشكل واضح لا غموض فيه، وهذه الخاصية نابعة أساسا من طبيعة المجال الذي تصفه وتعمل على نقل وتبليغ معارفه.

2-1-2- خاصية البساطة:

تنحو لغات التخصص نحو اعتماد بنيات وتعبير لغوية بسيطة غير معقدة تمتاز بالطابع التقني المباشر والواضح، وذلك لتحقيق غاية تتجلى في تيسير وتسهيل عملية نقل وإيصال المعارف المتخصصة بأقل كلفة لغوية ممكنة، وهذا نظرا لاشتمالها على قائمة أو ذخيرة من المصطلحات والمفردات التقنية التي يجب أن ترد في إطار تراكيب وبنيات لغوية بسيطة ويسيرة تضمن كما تصون دقة وقوة وصف المصطلحات.

3-1-2- خاصية الأحادية:

تتسم لغات التخصص كذلك بخاصية الأحادية على مستوى الدلالة، أي أنها لغة لا تحتمل تعدد التأويل، وهذا ناتج عن كون ألفاظها ومصطلحاتها لا تعرف التعدد الدلالي أو الاشتراك اللفظي، فضلا عن كون مفرداتها لا تعرف الترادف اللغوي، فكل مصطلح يحيل على مفهوم واحد، وكل مفهوم يسمى بتسمية (مصطلح) واحد.

كما أنها لغة خالية من المحتوى الثقافي الذي نجده حاضرا في اللغة العامة، وهي لغة محايدة وهذا بسبب حصرها في مجال أو حقل واحد ومحدد.

4-1-2- خاصية الدقة:

تختص لغات التخصص بهذه الخاصية على مستوى ألفاظها ومصطلحاتها، بمعنى أنها تسعى إلى نقل المصطلحات بمنتهى الدقة والضبط، وترتبط هذه الخاصية بسمة الأحادية كما يبرز ذلك حميدي بن يوسف (2019) إذ يصرح بأن اللغة تكون دقيقة إذا اشتملت على ألفاظ ذات إحالة دلالية واحدة، فينتفي بذلك الاشتراك اللفظي الذي تحيل بموجبه اللفظة إلى أكثر من دلالة، كما ينتفي بذلك الترادف الذي يعبر من خلاله عن معنى واحد بألفاظ مختلفة¹.

عموماً، فخاصية الدقة ما هي إلا امتداد لسمة الأحادية وملزمة لها، كونها تقوم على مقياس الدلالة الأحادية للمصطلحات المتخصصة.

5-1-2- خاصية الموضوعية:

تعتبر لغات التخصص في أساسها وجوهرها لغات موضوعية غير ذاتية، كونها تصف حقائقاً أو معارفاً علمية تتسم بطابع التخصص، وهي في طبيعتها بعيدة عن كل الإملاءات الذاتية للإنسان، كما يمكن القول إنها لغة شفافة غير مملوءة بما هو خارج تخصصها.

6-1-2- خاصية الاختزال والاقتصاد:

يمكن القول إن لغات التخصص تتأسس على هذه الخاصية، كونها تعمد إلى التعبير عن مختلف القضايا التي تصفها بأدنى حد من المفردات أو المصطلحات، وهذا بسبب التطورات المتسارعة والمستمرة التي تشهدها المجالات والميادين العلمية المتخصصة.

وذلك نظراً لتوظيفها للعديد من المختصرات اللغوية للتعبير عن بعض الحقائق أو المعطيات العلمية الخاصة.

7-1-2- خاصية الشمولية:

ما يقصد بخاصية الشمولية في لغات التخصص هو قدرتها على وصف كل المتغيرات والمستجدات الطارئة المجالات والميادين العلمية بشتى فروعها، بمعنى آخر، أن لغات التخصص تمتلك ذخيرة لغوية مهمة أساسها

¹ بن يوسف حميدي، بحوث في الصناعة المعجمية، مركز الكتاب الأكاديمي للنشر والتوزيع، الأردن، (2019)، ص 188.

المصطلحات المتخصصة المعبرة والواصفة التي تؤهلها لاحتواء واستيعاب ما جد من الظواهر والقضايا العلمية المتخصصة.

عموما، تمثل المقاييس المقدمة أعلاه أبرز الخصائص والمميزات التي تمتاز وتتفرد بها لغات التخصص عن باقي الأنماط اللغوية الأخرى، فضلا عن كونها تشكل أساس وجوهر تخصصها ودقتها.

خلاصة:

في الأخير يمكن القول إن لغات التخصص تحظى بأهمية بالغة على اعتبار أنها تمثل السبيل الموصل إلى فهم وإدراك العلوم، فضلا عن كونها تشكل مفتاح وأساس العلوم، كما أن الاهتمام بدراستها والبحث فيها أصبح مطلبا ملحا نظرا لما يشهده الميدان العلمي بشتى تخصصاته وحقوقه المختلفة من تطورات متسارعة.

ويمكن الإقرار بأن لغات التخصص رغم تنوعها وتعددتها إلا أنها تعد جزءا وفرعا خاصا من اللغة العامة، تعتمد عليها ويرتبط وجودها عليها، فضلا عن كونها تستقطب أغلب بل أبرز أوصافها ومقاييسها وخصائصها اللغوية على وجه الخصوص من نسقها.

كما تمتاز لغات التخصص بمجموعة من الخصائص والمميزات من قبيل الوضوح والبساطة والأحادية والاختزال...، التي تحفظ وتضمن لها البعد التخصصي الدقيق، كما تميزها عن باقي الأنماط والأشكال اللغوية الأخرى التي لا تطبع بخاصية العلمية.

قائمة المراجع:

- تريكي مبارك، بحوث لسانية محكمة، مركز الكتاب الأكاديمي للنشر والتوزيع، الأردن، (2020).
- الخولي علي محمد، دراسات لغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، (1998).
- الفهري الفاسي عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، ج2، ط4، دار توبقال، الدار البيضاء، (2000).
- القاسمي علي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، (2019).
- بن يوسف حميدي، بحوث في الصناعة المعجمية، مركز الكتاب الأكاديمي للنشر والتوزيع، الأردن، (2019).

مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

[ISSN 2311-519X](#) - DOI Prefix: 10.33685/1317

© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي